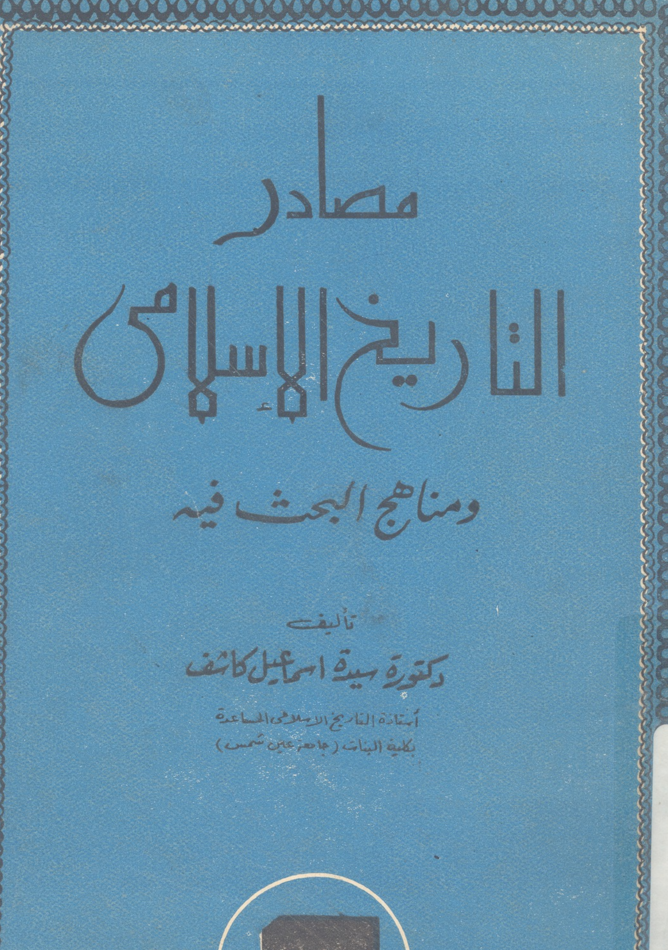


مصادر التاريخ الإسلامى

ومناهج البحث فيه

تأليف

دكتورة سيدة اسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ الإسلامى المساعدة

بكلية البنات (جامعة عين شمس)

مصادر التاريخ الإسلامي

ومناهج البحث فيه

تأليف

دكتورة سيدة إسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ الإسلامي المساعدة

كلية البنات (جامعة عين شمس)

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)



بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد فهذا كتاب يعرض لنشأة علم التاريخ عند المسلمين ، وارتباط هذا العلم بغيره من العلوم المختلفة ، كما يعرض لأشهر المؤرخين المسلمين ، وكتبهم ومناهج البحث فى التاريخ الإسلامى . وقد دفعنى إلى الكتابة فى هذه الموضوعات المختلفة إدخال مادة « النصوص التاريخية والتمرينات » فى مناهج جامعات الجمهورية العربية المتحدة ، وذلك كى يتعرف الطالب على المصادر الأصيلة والمراجع الهامة فى دراساته التاريخية ، ولتربية ملكة النقد التاريخى لدى الطالب حتى يستطيع الكتابة فى الموضوعات التاريخية المختلفة .

وهذا الكتاب سلسلة من محاضرات ألقيتها على طالباتى بكلية البنات لتنير الطريق لهن للبحث فى التاريخ الإسلامى وذلك أثناء قيامهن بكتابة الأبحاث المختلفة .

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه .

دكتورة

سيدة إسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ الإسلامى المساعدة

كلية البنات (جامعة عين شمس)

١٤ ذو القعدة ١٣٧٩

٩ مايو ١٩٦٠

الفصل الأول

التاريخ السياسي وتاريخ الحضارة

كان المؤرخون حتى مطلع القرن الحالى يتجهون فى دراسة التاريخ إلى بحث الأحوال السياسية للدول، ويهتمون بدراسة الحكام والشخصيات البارزة وأعمالهم وخصوماتهم ، فلم يظفر تاريخ الشعوب نفسها بالعناية الواجبة . ولكن الاتجاهات الحديثة فى دراسة التاريخ تهدف إلى دراسة الطبقات المختلفة فى الشعب وطرق معيشتها ونظمها وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

والواقع أن هذه الاتجاهات الحديثة هى التى تحقق الغرض من دراسة التاريخ . فدراسة التاريخ الاقتصادى والاجتماعى هى التى تكشف لنا تطور الحضارة فى الشعوب . وهى التى تساعدنا على فهم معظم الأحداث السياسية ، وعلى فهم عوامل التقدم والتأخر ومعرفة مواطن الضعف والقوة فى الشعوب ، والوقوف على التيارات المختلفة التى تؤثر فى حياتها .

والواقع أن مثل هذه الدراسة التى تلتقى بما يسمونه الجغرافية التاريخية والجغرافية السياسية والجغرافية الاقتصادية هى التى تمكننا من فهم الأحداث التاريخية والاشراف عليها وربطها بعضها ببعض ، وادراك ما بينها من علاقات بعيدة المدى .

ولا عجب فان كثيرا من الحركات السياسية والاجتماعية لا يمكن فهمها تماما إلا إذا درسنا العوامل الاقتصادية التي ولدتها وأثرت فيها وتأثرت بها .

فالدعوة العباسية ، وحركة القرامطة ، وحركة الاسماعيلية في التاريخ الاسلامي مثلا لم تكن حركات سياسية أو دينية فقط ، ولكن صلتها بالأوضاع والأهداف الاقتصادية وثيقة جدا . وثورة الزنج لم تكن حادثا سياسيا فقط بل كانت وثيقة الصلة بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية ، كما كانت سببا هاما من أسباب تفكك الامبراطورية العباسية وتشجيع الحركات الاستقلالية والاقليمية في بعض أجزائها . والفتوحات الاسلامية لا يمكن أن نفهمها حق الفهم إذا قررنا أن هدفها كان نشر الاسلام فقط لأن الحقيقة أن العوامل الاقتصادية كانت مهمة جدا في سيرها ، كما كانت منذ القدم أهم الأسباب لهجرة الساميين من شبه جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب ومصر والحبشة .

كما أن العوامل الاقتصادية تفسر لنا كثيراً من التعديلات التي أدخلها الأمويون في النظام المالي على يد الحجاج مثلا والتي أعاد عمر بن عبد العزيز النظر فيها في ضوء سياسته في العناية بنشر الإسلام قبل أي اعتبار آخر . والعوامل الاقتصادية والاجتماعية تفسر لنا معظم الأحداث السياسية التي أدت إلى سقوط الأسرات الحاكمة وقيام أسرات أخرى في التاريخ الإسلامي .

ويجب أن نذكر دائما أن حالات الشعوب ونظمها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تتطور تطوراً بطيئاً ومنتظما يستغرق أزمنة طويلة ، وأما الأحداث السياسية الكبيرة كسقوط أسرة حاكمة أو قيام أسرة حاكمة أو انتصار فاتح أجنبي أو اختراع معين فتحدث في مدد قصيرة وغالباً ما يكون لها آثار بعيدة المدى ، ومع ذلك فهي لا تسبب تغييرات أساسية وسريعة في حياة الشعوب ،

وذلك لأن مقومات هذه الحياة لاتتطور بالسرعة التى تقع بها الأحداث السياسية .

وهذا لا يعنى بطبيعة الحال أن الأحداث السياسية لا تؤثر فى تطور المجتمع ولكن المقصود أن النظم الاقتصادية والاجتماعية أبطأ فى التطور وأنها تؤثر فى وقوع الأحداث السياسية أكثر مما تتأثر بها .

وهكذا نرى أن التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لا يسير جنباً إلى جنب مع التقسيمات التى اصطلحنا فى وضعها للتاريخ الاسلامى منسوبة إلى الأسرات الحاكمة . لأن مجىء أسرة حاكمة جديدة لايمكن أن يقلب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية رأسا على عقب ولكنه يتطور بها تطوراً بطيئاً منتظما .

ونرى من ناحية أخرى ان النظام المالى والأوضاع الاقتصادية ذات صلة وثيقة بتطور النظم الاجتماعية وبنشأة الحركات الفكرية وتطورها ، ففنون النثر والشعر ومظاهر الحياة العقلية ذات صلة وثيقة بالحالة الاقتصادية .

وكانت التجارة والأهداف الاقتصادية من أكبر العوامل على انتشار الرحلات وكانت ذات صلة وثيقة بنشر الإسلام فى الأجزاء النائية من المعمورة فى العصور الوسطى ، وبالتأليف العربى فى تقويم البلدان وبما وصل الينامن أوصاف الرحالة لكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية فى الأقاليم الإسلامية المختلفة . كما كانت التجارة والأهداف الاقتصادية عاملا أساسياً فى مزج حضارة المسلمين بكثير من مظاهر الحضارة عند الأمم المجاورة ، فأثرت فى حضارات تلك الأمم وتأثرت المدنية الإسلامية بها فى كثير من النواحى الفكرية والفنية والعلمية . والواقع أن المجال لا يزال واسعا لدراسة العلاقات الفكرية والفنية بين

الحضارة الإسلامية وحضارات الهند والصين نتيجة للعوامل الاقتصادية والعلاقات التجارية بينها وبين تلك البلاد .

بل إننا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من هـــذا الحد فى بيان أهمية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية فى التاريخ الإسلامى فنقول إن دراسة النظم الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى تساعدنا على تفهم كثير من المشكلات والأوضاع فى التاريخ الحديث والتاريخ المعاصر للبلاد الإسلامية المختلفة . ولا ريب فى أن هذا من الأهمية بمكان كبير جداً لأن دراسة التاريخ القديم والوسيط لا تحقق أهدافها ولا تؤتى ثمرتها إذا لم تكن عونا على تفهم الأحداث والأوضاع فى التاريخ الحديث .

وهكذا ننتهى إلى أننا ، إذا أردنا أن ندرس التاريخ الإسلامى دراسة صحيحة تساعدنا على فهم الأحداث السياسية وتمكننا من تفهم العوامل التى أدت إلى تقدم المسلمين أو إلى تأخرهم فى الفترات المختلفة من التاريخ الإسلامى، يجب علينا أن ندرس المجتمع الإسلامى من كل نواحيه الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن العناية بدراسة المظاهر المختلفة فى حياة الإنسان وأحوال معيشته ليس معناها صرف النظر عن التاريخ السياسى والتركيز على الجوانب الحضارية فحسب على النحو الذى دعا إليه بعض علماء الألمان فى القرن الماضى والذى اضطروا إلى تسميته تاريخ الحضارة Kulturgeschichte .

فالواقع أن الاتجاه المعاصر فى دراسة التاريخ يجمع بين دراسة التاريخ السياسى والتاريخ الحضارى ، فكلاهما لا بد منه لتفهم الماضى وموازنته بالحاضر

مما يعيننا على أن نفهم الأحوال التى نعيش فيها الآن ، كأن نعرف مصادر الاختراعات التى ننعم بفضلها والمعتقدات والمذاهب الاجتماعية والسياسية والدينية التى تسود بيننا . ولذلك فأننا لا نؤيد تقسيم الدراسات التاريخية إلى «تاريخ» و «حضارة» لأن دراسة التاريخ السياسى وحده ليست تاريخا كاملا ، كما أن دراسة «الحضارة» لا يمكن فصلها تماما عن التاريخ السياسى ، اللهم إلا إذا قصد بها ان تكون دراسة جانب من التاريخ . فعلم التاريخ لا يمكن أن يؤدى الغرض منه وأن يكون تاريخا بالمعنى الصحيح إلا إذا درس الماضى بما فيه من الأحداث events ، والأحوال Conditions التى كان يعيش فيها الإنسان من النواحى المختلفة ، والنظم Institutions التى اهتدى إليها وتطورت على يده[1] .

والمعروف أن الاكتفاء بدراسة الأحداث او التاريخ السياسى أيسر من التعمق فى الدراسات التاريخية لتشمل الأحوال والنظم . ومن الغريب أننا نرى بعض المؤرخين يؤلفون كتباً يسمونها تاريخا سياسياً ولكننا نجد فيها حديثا عن بعض جوانب الحضارة . والراجح أن مثل هؤلاء المؤرخين قد يكونون على بينة مما فى كتبهم من قصور فى الدراسات الخاصة بالحضارة وأنهم يحاولون ستر هذا القصور بتسمية تلك الكتب تاريخا سياسيا .

---

(١) أنظر : Robinson (James Harvey) : Medieval and Modern Times 2nd ed. (New York, 1934) p. 1.

الفصل الثانى

صعوبة تقسيم التاريخ

إلى فترات تبتدىء وتنتهى فى سنين معينة

ليس من السهل تقسيم العصور الماضية إلى فترات محدودة تماما تبدأ كل منها فى سنة معينة وتنتهى فى سنة معينة . فلانستطيع مثلا أن نقول أن العصور القديمة انتهت تماما وخلفتها العصور الوسطى عند سقوط روما فى يد البرابرة سنة ٤٧٦ م ، وأن هذه الأخيرة انتهت وخلفها عصر النهضة ثم العصور الحديثة عند استيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م ، وأن العصر الحديث بدأ بقيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م .

والواقع أن سقوط مدينة وانتهاء دولة ، أو قيام ثورة أو غير ذلك من الأحداث قد يسبب تغيير حكومة أو تعديل نظام من أنظمة الحكم ، وقد يؤدى هذا إلى كساد فى التجارة أو رواج ، وإلى تغير فى بعض نظم الحياة والطرز الفنية ، ولكن هذه التأثيرات العميقة لا تظهر إلا تدريجيا ، إذ أن الشعب لا يمكن أن يتغير نظام حياته اليومية أو الثقافية والاجتماعية ، والصانع لا يستطيع أن يغير أساليبه الصناعية ، والفنان لن تتغير مواهبه ، بين عشية وضحاها بسبب قيام ثورة أو خسارة معركة حربية . وهكذا نرى أن قيام الحكومات الجديدة لا يغير فى حياة الشعب إلا تدريجيا وقد لا يؤثر فيها تأثيرا يستحق الذكر .

أما الأحداث التاريخية التى تسبب تغيرا ملموسا كاختراع الطباعة ، وظهور الصحف ، واستخدام البخار ، واختراع السكك الحديدية ، فإن هذا التغير الذى تحدثه إنما يكون فى جانب معين من حياة الإنسان ، ولا ينتج عنه تغير فجائى فى عادات الناس وطرق معيشتهم بوجه عام . وصفوة القول أن مثل هذا التغيير الفجائى فى أساليب معيشة الناس ، ونظام حياتهم ، والصفات العامة للمجتمع الذى يعيشون فيه لا يمكن أن يحدثه تعديل نظام الحكم من ملكى إلى جمهورى ، أو هزيمة الدولة فى حرب كبيرة ، أو استخدام البخار فى تسيير الآلات ، أو ما إلى ذلك مما يمكن أن نتصوره من أحداث كبيرة ، لأن الأثر الذى ينتج عن هذه الأحداث إنما يكون تدريجيا . أجل إن هذا الأثر يتفاوت فى الشدة وسرعة الظهور ولكنه لا يكون فجائيا . وتلك هى الظاهرة التى تعرف باسم وحدة التاريخ unity of history أو الاستمرار والتسلسل فى التاريخ Continuity of History .

الفصل الثالث

نشأة علم التاريخ عند المسلمين

قام علم التاريخ عند العرب على أسس من الرواية الشفهية ، ولا عجب فإن إنتشار الأمية قبيل الإسلام وفى بداية العصر الإسلامى من ناحية، وطبيعة المجتمع القبلى فى بلاد العرب وما كان يسود هذا المجتمع من مفاخرة الأفراد والقبائل بحسبها ونسبها من ناحية أخرى ، جعل كثيرا من العرب يحرصون على رواية مفاخرهم ومفاخر قبائلهم ومثالب خصومهم . وكانت الرواية الشفهية تنقل الأحاديث فى هذا الميدان من جيل إلى جيل . ومما يتصل بذلك فى القبائل التى كانت تنزل القسم الشمالى من بلاد العرب ، الأخبار التى تعرف باسم « أيام العرب » والتى تقص أحاديث الحروب بين القبائل المختلفة . وعلى الرغم مما فى بعض هذه الأخبار من خيال وغموض وعدم تقيد بالدقة فقد كان لها تأثير كبير فى نشأة علم التاريخ ، إذ أن قيام الإسلام لم يقض عليها ، بل إن المؤلفين المسلمين فى فجر الإسلام استمدوا منها كثيرا مما دونوه عن بلاد العرب الشمالية قبيل الإسلام وفى القرن الأول الهجرى، فضلا عن أنها حفظت أنساب العرب إلى حد كبير .

أما الأخبار التى نعرفها عن بلاد العرب الجنوبية فى المصادر العربية فإن أساسها الرواية الشفهية وليس فيها ما يعتمد على بيانات تاريخية مدونة ، وذلك على الرغم من أن اليمن كانت مقرا لحضارة قديمة . ولا تكاد هذه الأخبار تتجاوز أسماء بعض الملوك وقصصا تحمل طابع الخرافة عن العصور التى

سبقت القرن الأول قبل الهجرة . ولكن ماوصل إلينا عن هذا القرن الأخير نراه أكثر تفصيلا ودقة .

* * *

ونلاحظ أن الدعوة الإسلامية شغلت العرب عن أساطير الأولين ، وعن أيام العرب وأنسابهم ، وعن أخبار بعض دول اليمن ، وعن أخبار اليهود وأحبارهم ، والنصارى ورهبانهم ، وعن أخبار الأمم المجاورة للعرب الذين اتصلوا بهم بواسطة التجارة ، كالأحباش والروم والفرس والهنود والأنباط والسريان والكلدان . ولما استقر الإسلام بدأ العرب يعنون بأخبارهم القديمة .

وقد شهد القرن الأول بعد الهجرة عناية بتنمية الأخبار المختلفة عن العرب في العصر الجاهلي والأمم التي اتصلت بهم ، وتألف من تلك الأخبار مجموعة من الأساطير . وممن عرفوا بالدراية في هذا الميدان وهب بن منبه (ت سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) وعبيد بن شرية .

ويبدو أن تدوين هذه الأساطير والأخبار والسير بدأ في العصر الأموي في صحف وكراريس . ويروى أن عبيد بن شرية ألف لمعاوية بن أبي سفيان (كتاب الملوك وأخبار الماضين) كما روى أن معاوية كان يستمع كل ليلة إلى شيء من أخبار العرب وأيامها وأخبار العجم وملوكها . وكان يأتيه غلمان بكتب يقومون على حفظها ويقرأون له مما فيها عن سير الملوك وأخبار دولهم[١]

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص ١٧٣ وص١٧٥ و ج ٤ ص ٨٩ وج ٥ ص ٧٧ — ٧٨ (ط . أوربا) ، F. Krenkow : The two oldest books on Arabic Folklore (in Islamic Culture, II.)

الدكتور زكي محمد حسن : دراسات في الموازنة بين المؤرخين في دار الاسلام والمؤرخين الأوروبيين في العصور الوسطى ص ٦ — ٧ (مجلة كلية الآداب والعلوم في بغداد . الجزء الثاني يونية ١٩٥٧) .

وكان المشتغلون بالأخبار الشفهية عن العرب فى الجاهلية هم الرواة والمعنيون بالأنساب . ثم انضمت إليهم طائفة جديدة قوامها الادباء والمشتغلون باللغة فقد اتجهوا إلى دراسة كل ماوصل إليهم من الشعر الجاهلى فبحثوا الروايات المختلفة عن أخبار العرب الشماليين وأيامهم فى الجاهلية ، وعن أخبار المسلمين فى عهد النبى ﷺ وفى عصر الفتوحات. وظهر من بين هؤلاء الرواة والأدباء والنسابة، المؤلفون الذين مهدوا للكتابة فى التاريخ مثل محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م) وابنه هشام الكلبي (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م) وأبى مخنف الازدى (ت ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م) ، وسيف بن عمر الكوفى الأسدى (ت ١٧٠ هـ / ٧٨٦م) والمدائنى (ت ٢٢٥ هـ / ٨٣٩م) والزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩م وهو من سلالة عبد الله بن الزبير).

وقد ذكر ابن النديم صاحب الفهرست مئات الكتب لهؤلاء المؤلفين ومع ذلك فقد ضاعت كلها تقريبا ولم يبق بأيدينا إلا بضع كتب أو ما اقتبسه المؤرخون منها وأودعوه كتبهم كالطبرى والمسعودى وابن عبد ربه وأبى الفرج الاصفهانى صاحب الأغانى .

كذلك كان للدين الإسلامى أثر كبير فى إيجاد علم التاريخ عند العرب وتطوره ، حتى فاق المسلمون فى هذا العلم غيرهم من الأمم . وقد عنى المسلمون ولاسيما الصحابة منهم بحفظ القرآن وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام .

أما القرآن فهو كتاب الله تعالى أنزله لفظا ومعنى على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام . ونص القرآن مضبوط بصفة عامة يقر الجميع بصحته وإن وجدت القراءات المختلفة إلا أنها قليلة نسبيا ومقصورة على بعض الكلمات . وقد استقر من هذه القراءات سبع فى أواخر القرن الرابع الهجرى كلها

مقبولة لدى المسلمين والفروق بينها لفظية لا تمس المعنى . ولم ينزل القرآن الكريم مرة واحدة وإنما نزل على محمد منجما فى مدة تقرب من العشرين عاما .

وتفسر كلمة « قرآن » من قرأ بمعنى تلاوة شىء مكتوب أو التلاوة التى لا تستوجب ما هو مكتوب بيد القارىء .

وترد كلمة (كتاب) مرادفة لكلمة (قرآن) كما فى الآية الكريمة : (الله الذى أنزل الكتاب بالحق)[1] .

والقرآن يتكون من سور وهى أقسام القرآن الرئيسية أو فصوله . وتحتوى السور على الآيات وهى أجزاء القرآن الصغيرة . والآية فى الأصل البرهان أو المعجزة فهى دليل على نبوة النبى عليه الصلاة والسلام .

وترجع سور القرآن الكريم إلى فترتين : الفترة المكية قبل سنة ٦٢٢م والفترة المدنية من خريف ٦٢٢م إلى صيف سنة ٦٣٢م (من ١ هـ — ١١هـ) . ونلاحظ أن مركز المسلمين اختلف فى الفترتين ، ففى الأولى كانوا أقلية مضطهدة ، وفى الثانية توسع نفوذهم تدريجيا حتى صاروا سادة المدينة ثم أعظم قوة فى الجزيرة العربية .

وفى القرآن الكريم شىء من أخبار العرب قبل الإسلام ولاسيما ذكر بعض القبائل العربية القديمة مثل عاد وثمود فضلا عن قصص الأنبياء وموضوع سيل العرم وقصة لقمان وأصحاب الفيل وبعض أخبار ملوك اليمن . ومن سور

(١) سورة الشورى آية ١٧ .

القرآن الكريم التى جاء فيها بعض أخبار العرب القدماء سورة البقرة وآل عمران والنساء والكهف والحاقة .

وعلى الرغم من أن الكشوف الأثرية قد أيدت صحة ما جاء فى الكتب المقدسة — ولا سيما القرآن — عن بعض أخبار العرب القدماء،فان المستشرقين لا يميلون إلى الاعتماد على الكتب المقدسة فى ميدان التاريخ إذ أنهم يرون أن ما جاء فيها سرد بأسلوب مختصر وأنه كان يهدف — ولاسيما القرآن — إلى عبرة أخلاقية فضلا عن أن بعض أخبارها لا يزال غير واضح وينقصه التحديد الزمانى والمكانى . ويشيرون بهذه المناسبة إلى اختلاف المفسرين والشراح فى تفسير تلك الأخبار .

ويلقى القرآن الكريم ضوءا كبيرا على المشاكل الكثيرة التى واجهت الرسول والعقبات التى اعترضته . ولا شك أن القرآن الكريم هو المصدر الأول لدراسة نشأة الإسلام وعقائده نظرا لأصالته ولما فيه من إشارات وأخبار عن الرسول وعصره وما لاقته الدعوة الاسلامية .

غير أنه ينبغى أن نتذكر صعوبة الاستفادة من ذلك المصدر الرئيسى نظراً لأن القرآن الكريم لم يشمل بالذكر كافة الحوادث التى مر بها الإسلام، أو كل الأعمال التى قام بها محمد عليه الصلاة والسلام ، أو كافة من اتصل بهم من أشخاص .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يحفظ ما يوحى إليه ويظهر انه (ص) استعان بعد فترة بالكتاب لكتابة ما يمليه عليه الوحى فى مكة والمدينة أمثال زيد بن ثابت وابىّ بن كعب . وكان هؤلاء الكتاب يكتبون

على المواد المتوفرة مثل العسب(١) واللخاف(٢) والرقاع(٣) والقراطيس ، وكسر الأكتاف(٤) ، وقطع الأديم(٥) والأقتاب(٦)

وحينما توفى الرسول (ﷺ) كان لا بد من حفظ كلام الله ، وكان فيما كتب للرسول (ﷺ) ، وفى الصحف الخاصة التى كتبها بعض الصحابة فى مكة وفى المدينة ، وما حفظ فى صدور الرجال المادة اللازمة لجمع القرآن .

ويظهر أن الجمع الأول للقرآن بعد الرسول (ﷺ) كان فى حياة أبى بكر الصديق . إذ يروى أن عمر بن الخطاب خشى بعد مقتل قسم كبير من القراء فى الحرب مع مسيلمة الكذاب ، أن يقتل قراء آخرون فى معارك أخرى فيضيع شىء من القرآن ، ولذا اقترح على أبى بكر الصديق جمع القرآن وأقنعه بوجهة نظره ، وتروى أغلب الروايات أن أبا بكر عهد بذلك إلى زيد ابن ثابت كاتب الوحى للرسول (ﷺ) وقد أتم زيد هـذا الجمع من سور مكتوبة على العسب وعلى الأحجار وعلى قطع من الجلد وعلى صحف (أى أوراق متفرقة) ، ومن صدور الرجال ، ولما أتم جمع القرآن أعطى نسخته لأبى بكر . وقد خلفها أبو بكر لعمر بن الخطاب الذى تركها بدوره عند ابنته حفصة زوج الرسول (ﷺ) ، أما جمع القرآن النهائى فقد تم فى عهد عثمان بن عفان .

---

(١) العسب جمع العسيب وهو جريد النخل.
(٢) اللخاف : الحجارة الرقيقة جمع اللخفة .
(٣) الرقاع من جلد أو ورق جمع رقعة .
(٤) الأكتاف جمع كتف وهو العظم الذى للبعير أو الشاة إذا جف كتب عليه.
(٥) الأديم هو الجلد .
(٦) الأقتاب جمع قتب وهو الرحل أو الخشب الذى يوضع على ظهر البعير .

ونلاحظ أن القرآن جمع على أساس طول السور وقصرها ، وليس بحسب ترتيبها التاريخى وزمن نزولها . ولهـذا نرى أنه ليس من السهل الاستفادة من القرآن فى الدراسة التاريخية لحياة الرسول (ص) فالسورة الواحدة لم تنزل مرة واحدة بل كثيرا ما تـكون فى السورة الواحدة آيات مكية وأخرى مدنية . وقد تـكون السورة الواحدة مكية خالصة ولـكن آياتها نزلت فى فترات متباعدة ثم جمعت فى سورة واحدة .

وقد بحث العلماء المسلمون مثل عبد الله بن عباس فى تعاقب نزول السور ورووا ترتيبها حسب نزولها ولـكنهم اختلفوا فى أبحاثهم إختلافات كبيرة .

وقد حاول بعض المستشرقين دراسة زمن النزول مثل ثيودور نلدكه Nöldeke فى كتابه تاريخ القرآن . وقد اتخذ نلدكه الأسلوب أساسا لمعرفة زمن نزول السور واعتبر السور الأولى آياتها قصيرة مسجوعة ، أما السور المتأخرة فـآياتها طويلة غير مسجوعة فى الغالب . ولـكن دراسته شأن دراسة العلماء المسلمين تعتبر ناقصة من حيث آيات السورة الواحـدة فقد تـكون نزلت فى أوقات متباعدة .

وقد قام المستشرق الانجليزى ريتشارد بل Bell بدراسة أخرى حيث ترجم القرآن ودرس كل آية وحاول تحديدزمن نزولها من معناها وموضعها وأسلوبها، ولا شك أن بحثه له أهميته ولـكن أحكامه ليست بطبيعة الحال قاطعه[1].

---

(١) قارن السيوطى ، الإتقان فى علوم القرآن ،
Nöldeke : Geschichte des Qoräns, Göttingen 1860, Bell: The Qur'än. Translated with a critical rearrangement of the Surahs, 2 vols. Edinburgh 1937 - 1939, Blachère : Le Coran. Traduction selon un essai de reclassement des sourates 3 vols. Paris 1949—1951

أما الأحاديث فتتصل اتصالا وثيقا بنشأة التاريخ عند العرب بعد القرآن، وتعنى كلمة « حديث » فى الأصل « الخبر » أو «الرواية الشفوية» فى موضوع دينى أو دنيوى . ثم اتخذت معنى خاصا فى الإسلام فصارت تعنى أقوال الرسول (ص) . أما كلمة « سنة » فتعنى طريقة التصرف العادى فى النواحى الاجتماعية والدينية والقانونية . وكانت هذه الكلمة معروفة عند العرب الجاهلين وتعنى العادة المتبعة عندهم . فلما جاء الإسلام صارت تعنى عادة الرسول (ص) أى ما عمله أو أقره أو رآه فلم ينكره .

فالحديث يشير للقول ، والسنة تشير للعمل . وقد تكون السنة مشمولة بحديث كما يتضح من قول الإمام أحمد بن حنبل « فى هذا الحديث خمس سنن » .

وفى البداية كان الصحابة أى الذين عاشوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وصحبوه خير مصدر للمعلومات عن الحديث والسنة . فقد سمعوا الرسول (ص) نفسه يتكلم وشاهدوا أعماله . وبعد ذلك أخذ الناس الأحاديث والسنة عن « التابعين أى الجيل التالى لعصر النبوة الذين سمعوا الحديث عن الصحابة . ثم أخذ بعد ذلك عن التابعين « تابعوا التابعين » .

ولذا نرى أن كل حديث كامل يتألف من قسمين . القسم الأول هو سلسلة رواة الحديث على التوالى ويسمى « الإسناد » أو « السند » لأنه يثبت صحة الخبر . ويبدأ السند بآخر راو للحديث ويتدرج إلى الشخص الذى صدر عنه الحديث . والقسم الثانى للحديث « المتن » أو محتويات الحديث .

وقد رأى المؤمنون فى السنة والحديث « أساسا بعد القرآن فى تفهم كل أمور الحياة دينية كانت أو إجتماعية أو إدارية .

ولما كان المجتمع الإسلامى يستند فى أساسه إلى الدين ، فقد استند إلى القرآن والسنة . أما القرآن فإن نصه معين محدد . وأما السنة والأحاديث فقد استطاع ذوو الأغراض المختلفة أن يدخلوا فيها ما يحلو لهم لخدمة أغراضهم .

والواقع أن أئمة الحديث متفقون على أن أحاديث كثيرة وضعتها جهات مختلفة ويشير ابن حزم صاحب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » إلى وضع أحاديث فى حياة الرسول (ص) نفسه . ومنذ الفتنة الأولى فى الإسلام زمن عثمان بن عفان أخذ وضع الحديث يزداد وينمو حتى أستفحل الأمر فيما بعد . فنرى الأمويين يروجون الأحاديث فى فضائل عثمان وفضائل الأمويين . وقد وضع العباسيون أحاديث تؤيد حكمهم وتثبت حقهم فى الخلافة . وينسب إلى المهلب بن أبى صفرة — بطل محاربة الخوارج زمن الأمويين — الأحاديث ضد الخوارج . كذلك وضع أنصار المرجئة الأحاديث فى تعضيد المرجئة ، كما وضع بعض الصوفية الأحاديث فى تأييد الصوفية . وهكذا نرى أن كل فرقة وضعت الأحاديث نصرة لرأيها وتعضيدا لمسلكها . أما الشيعة فأنهم يسمون الأحاديث « الأخبار » . ولا تنتقل الأحاديث عندهم بالاسناد ، وإنما تروى عن أئمة الشيعة وحدهم .

ولم يقتصر وضع الحديث على أصحاب الفرق والمذاهب المختلفة بل أن قصاص العامة الذين كانوا يروون القصص الغريبة والخزعبلات المختلفة لاضحاك الناس وجلب رضاهم فى سبيل الحصول على المال ، كان هؤلاء يضعون الأحاديث الغريبة لاستهواء الناس .

وهناك بعض الأتقياء والزهاد الذين وضعوا الحديث لصرف الناس إلى الدين وإلى القرآن وذلك رغبة فى حفظ الدين وتقويته . ومن هؤلاء نوح بن

مريم الذى كان يعد من أكابر الفقهاء والمحدثين كما كان قاضيا فى خلافة أبى جعفر المنصور ، فقد روى كثيراً فى فضائل سور القرآن واعترف بأنه وضعها لوجه الله وذلك ليصرف بها الناس إلى القرآن المجيد.

كذلك كان للتطور الاجتماعى والفكرى عند المسلمين أثره فى الحديث الموضوع . كما لعب الزنادقة والملاحدة دورهم فى اختلاق الحديث لإفساد الدين .

وكان ابتلاء الحديث بالوضع سببا فى عناية المحدثين بالتنقيب والتدقيق فيه. ومع أن علماء الحديث بذلوا جهداً عظيما رائما فى هذا الميدان إلا أن اهتمامهم كان منصبا على النقد الظاهرى دون الباطنى أى على الرواة ورجال السند دون نصوص الحديث . والواقع أن محاولات رجال الحديث لم تؤد إلى تنقيته التامة فظل كثير من الأحاديث مثار نقاش حول مدى صحتها ودقتها .

* * *

ولم يقتصر الحديث فى البداية على الحفظ والرواية الشفهية بل الراجح أن تدوين الحديث بدأ فى حياة النبى (ص) .

ويقال أن عبد الله بن عمرو بن العاص استأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى أن يكتب عنه فأذن له ، فقال : « يا رسول الله ! أكتب ما أسمع فى الرضا والغضب . قال . نعم ! فأنى لا أقول إلا حقا » [1].

ويذكر ابن سعد [2] عن إسحق بن يحى عن مجاهد أنه قال : « رأيت

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة . ج ٣ ص٢٣٣ ط . القاهرة ١٢٨٥ — ١٢٨٦ هـ .

(٢) الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٨٩ (ط. ليدن ١٩٠٥ — ١٩٢١ م) .

عند عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة فسألته عنها فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه فيها أحد . »

وقال أبو هريرة : ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ منى إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب . وقال عبد الله : حفظت عن النبي ﷺ ألف مثل[1] .

ويقال إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه جمع خمسمائة حديث . وكانت عند على رضى الله عنه صحيفة حديث أيضاً . ويروى أنه كان عند عبد الله بن عباس صحف عديدة وأنه ترك عند موته من الكتب ما بلغ حمل بعير . كذلك كانت عند جابر بن عبد الله صحيفة ، كما يروى أنه كانت هناك صحف لصحابة آخرين .

وقد وجدت مثل هذه الصحف فى عصر التابعين فكان عند الزهرى صحف وكذلك عند مكحول والحسن البصرى .

والمعروف أن الصحابة تفرقوا فى كافة البلدان التى فتحتها الجيوش الإسلامية ، بل انضم كثير منهم إلى الجيوش التى فتحت تلك البلدان . وربما تعمد الخلفاء تفريقهم ليعلموا أهلها الدين الإسلامى . وكان الصحابة العلماء أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار . ويذكر المقريزى[2] أن أهل المدينة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وأن أهل الكوفة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما ، وأن أهل مكة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وأن أهل مصر

---

(١) ابن الأثير . أسد الغابة ج ٣ ص ٢٣٣ ، ابن حجر العسقلانى : الاصابة فى تمييز الصحابة ج ٤ ص ١١٢ (ط . القاهرة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ هـ) .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٣٣٢ (ط . بولاق ١٢٧٠ هـ) .

كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما.

وكان أئمة الحديث الأول بعيدين عن السياسة وعن السلطان فى عصر الخلفاء الراشدين مثل عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب وسعيد بن المسيب . أما فى العصر الأموى فكانت الخصومة بين الأمويين والفقهاء مستمرة باستثناء خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ) فلم يحاول الأمويون تقريب الفقهاء والاعتماد عليهم لتأييد حكمهم كما فعل العباسيون بعد ذلك ، ومن ناحية أخرى كان فقهاء المسلمين يأخذون على بنى أمية إيجادهم سنة الملك وخروجهم على سنة الخلفاء من قبلهم ، كما أن معظم أولئك الفقهاء لم يرتاحوا إلى استيلاء أرستقراطية قريش على السلطان فى الدولة الإسلامية فتجنى ثمار الدعوة بعد أن كانت تقاوم النبى فى بدايتها كل المقاومة .

ولما جاء العباسيون اعتمدوا على الفقهاء لتأييد خلافتهم وقربوهم إليهم . ولعل رعاية العباسيين للفقهاء كان لها أثرها فى تنشيط حركة جمع الحديث . والواقع أن المسلمين كانوا يروون معظم الأحاديث شفهياً ، وإن كان هناك تدوين للأحاديث كما ذكرنا فلم يكن تدوينا بالمعنى الصحيح . ولعل المسلمين تحاشوا تدوين الأحاديث تدوينا شاملا منذ البداية مخافة اختلاطها بالقرآن .

ومن الصحائف الباقية إلى الآن والتى تعتبر من أقدم صحائف الحديث ، صحيفة عبد الله بن لهيعة المصرى (ت ١٧٤ هـ) وهى ضمن مجموعة أوراق البردى بمدينة هيدلبرج .

أما أقدم الأحاديث المدونة الباقية فهى موطأ الإمام مالك بن أنس الأصبحى (ت ١٧٩ هـ) الذى يمتاز مذهبه باعتماده على الحديث وهو صاحب مدرسة أهل الحديث التى كان مركزها الأول فى المدينة وكان أصحابها يتمسكون

بالحديث ويعتمدون عليه فى المشاكل الفقهية ولا يرجعون إلى الرأى إلا نادراً وفى حالات قاهرة .

وقد وصلنا الموطأ عن عــــدة روايات أهمها رواية تلميذ الإمام مالك الأندلسى يحي بن يحي المصمودى ، ورواية سحنون ، ورواية الشيبانى .

ونلاحظ أن الموطأ ليس مجموعة أحاديث بل هو كتاب فقهى يستند إلى الأحاديث للاستشهاد .

ويظهر أن التدوين المنظم للحديث كان فى القرن الثالث الهجرى إذا ظهرت فى هذا القرن مجموعات من كتب الحديث أهمها عند السنة ستة ، وهى صحيح البخاري (ت ٢٥٦ ﻫ / ٨٧٠ م) وصحيح مسلم (٢٦١ ﻫ / ٨٧٥ م) وسنن أبى داود (٢٧٥ ﻫ / ٨٠٧ م) وسنن الترمذى (٢٧٩ ﻫ / ٨٩٢ م) والنسائى (٣٠٣ ﻫ / ٩١٥ م) وسنن ابن ماجه (٢٧٣ ﻫ / ٨٨٦ م) .

وهناك رواية تنسب للإمام مالك بن أنس مؤداها أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ ﻫ) أمر قاضيه على المدينة — أبا بكر محمد بن عمر ابن حزم — أن يكتب له ما كان من حديث رسول الله (ص) وسنته خوفا من ضياع العلم وذهاب العلماء . وهذا الخبر يرد فى طبعة واحدة لموطأ مالك وهى رواية محمد الحسن الشيبانى . ولا يشير جامعو الأحاديث فى القرن الثالث الهجرى إلى هذا الجمع فى زمن عمر بن عبد العزيز .

* * *

ذكرنا أن بداية التأليف العلمى فى التاريخ عند المسلمين كانت وثيقة الصلة بالحديث والسنة . ولا عجب فإن علم الحديث والسنة يهدف إلى دراسة أقوال

النبي (ص) وأفعاله وكان الاعتماد فيه أولا على الرواية الشفهية ، وإذا كان قد كتب فى القرن الأول كما ذكرنا فإنه لم يدون تدوينا صحيحا وشاملا إلا فى القرنين الثانى والثالث الهجرى . كذلك كان علم التاريخ عند المسلمين يهدف فى البداية إلى دراسة سيرة النبى (ص) وأعمال الصحابة والجماعة الإسلامية الناشئة وأخبار الغزوات والجهاد . وكان الاعتماد فيـــه أيضا على الرواية الشفهية قبل كل شىء . وهكذا نرى أن طبيعة علم التاريخ لم تكن تختلف أولا عن طبيعة علم الحديث ، اللهم إلا فى هدف كل منهما ونوع الروايات التى يعنى بها . فالمحدثون يعنون بالروايات التى تقرر مبادىء فقهية أو خلقية بينما يعنى المؤرخون بالروايات التى تتجه إلى سرد الحوادث . فالحديث دراية ورواية والتاريخ عند العرب دراية ورواية . وحسبنا دليلا على اشتراك العلمين فى المصادر والمنهج أن كل جيل كان يأخذ الروايات عن الجيل الذى سبقه ، وأن المتن فى كل رواية كان مسبوقا بالسند أو الإسناد[1] . والمعروف أن المحدثين عنوا بالإسناد عناية كبيرة وكانوا لا يثقون بالحديث إلا إذا كان إسناده سلسلة متصلة من الرواة الموثوق بهم ، ولذلك اتجهوا إلى دراسة الرواة والوصول إلى درجة تدقيق كل منهم فى نقل الأحاديث . وألف العلماء بعض كتب الطبقات (أى سيرة الرجال) مثل طبقات ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م) وطبقات الحفاظ للذهبي (٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م) . وكان هذا كله

---

(١) سمى سندا لأن المتن يستند إلى أولئك الرواة أى يعتمد عليهم فهم يثبتون صحته ، وسمى إسنادا لأن المتن يسند أى يعزى ويرفع اليهم .

أساسا لعلم نقد الرواة وهو المعروف فى مصطلح الحديث باسم « الجرح والتعديل » (١) .

* * *

وأقدم الكتب التاريخية التى تجمع بين الحديث والتاريخ هى كتب المغازى والسير . وطبيعى أن تكون نشأتها فى المدينة بوصفها « دار السنة » التى عاش فيها الصحابة وشاهدوا الرسول ﷺ وسمعوا أحاديثه ورووها إلى التابعين . والواقع أن الكتابة فى تاريخ المغازى والسير لم تنتشر من المدينة إلى غيرها من الأمصار إلا فى القرن الثانى للهجره . وكيفما كانت الحال فإن الكتابة فى المغازى تنقلنا لأول مرة إلى الكتابة التاريخية الصحيحة عند العرب على الرغم من ضعف بعض الروايات فى هذه الكتب التاريخية ، بسبب ما نعرفه عن أن نص الحديث لم يكن مجموعا ومعينا وان هذا فتح الباب لوضع الأحاديث المدسوسة لتأييد طائفة معينة من المسلمين أو لصالح فرقة أو مذهب أو قبيلة أو بلد .

---

(١) التعديل من عدل الشاهد أى زكاه ، والتجريح من جرح الشهادة أو الشاهد أى ردها أو رده . والتعديل والتجريح من مصطلح الحديث والفقه ، فالتعديل هو التسليم لأحد بأنه حاصل على العداله فى الرواية والشهادة بسبب ما عرف عنه من استقامة السيرة فى الدين والخوف من الله خوفا وازعا عن الكذب ، والتجريح قول أئمة الحديث والفقة عن أحد الرواة أو الشهود أنه غير ثقة أو أمين فى روايته أو شهادته . (أنظر أبو حامد الغزالى : المستصفى من علم الأصول (ط . مصر) ج ١ ص ١٠٠ و ج ٢ ص ١٠٢ — ١٠٣ ، ابن حجر العسقلانى : نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر (ط . مصر سنة ١٣٠٨ هـ) ص ٣ ، عياض بن عياض : كتاب الالماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ص ٣ ، وابن الصلاح الشهر زورى . مقدمة ابن الصلاح (ط . حلب) ص ١١٤ — ١٣٧ ، الدكتور أسد رستم . مصطلح التاريخ ص ١٠٠ — ١٢٣ . وأنظر أيضا الجرح والتعديل فى التاريخ فى مقدمة ابن خلدون (مطبعة الكشاف ببيروت) الكتاب الأول ص ٣٥ — ٣٨ .

وكانت تلك الكتب التاريخيه الأولى تبحث فى سيرة النبى (ص) وغزواته وتجمع أخبار هجرة المسلمين إلى الحبشة وإلى المدينة ، وأخبار غزوات النبى (ص) والذين اشتركوا فيها .

ومن أقدم كتاب المغازى عروة بن الزبير (ت ٩٢ هـ / ٧١٠ م) وقد وصلت إلينا بعض رسائله فى كتب بن اسحق والواقدى والطبرى . ومنهم ابان بن عثمان بن عفان (ت نحو سنة ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م) الذى يذكر بأنه أول من دون مجموعة خاصة بالمغازى . ومن أشهر مؤرخى السيرة أيضاً شرحبيل ابن سعد (ت سنه ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م) وعبد الله بن أبى بكر بن حزم (ت سنة ١٣٥هـ / ٧٥٣ م) وعاصم بن عمر بن قتاده (ت سنه ١٢٠ هـ / ٧١٧م) . وكان هؤلاء كلهم من المدينة .

وهناك كاتب آخر من الرعيل الأول بين كتاب المغازى كان يمنيا من إحدى الأسرات الفارسية التى استقرت فيها قبل الأسلام ذلك هو وهب بن منبه (ت سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) . وقد اشتهر وهب بمعرفته أخبار أهل الكتاب من يهود ومسيحيين عن طريق اليمنيين من أهل الكتاب . ويبدو أنه كان ذا دراية بالكتابات القديمة فقد أشار المسعودى إلى أن الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك عثر على حجر عليه نقوش غير عربية أثناء بناء الجامع الأموى بدمشق فى سنة ٨٧ هـ «وعرض الحجر على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته فوجه به إلى وهب بن منية ليقرأها »[١] .

وينسب إلى وهب بن منبه « كتاب المبتدأ » الذى استغله الثعلبى فى كتابه «عرائس المجالس فى قصص الأنبياء» ويشير عنوان كتاب « المبتدأ » إلى مبتدأ

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٠٢ (المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٦ هـ) .

الخلق . ولكن الكتاب يضم كثيراً من قصص الأنبياء . كما ينسب إلى وهب «كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وغير ذلك»[1] وهو التاريخ القديم الخرافى لليمن . وعلى الرغم من أن هذه الكتب لم تصل الينا فإننا نعرف أجزاء منها فى «كتاب التيجان» لابن هشام [2] . وفى المانيا قطعة من كتاب فى المغازى لوهب ، تاريخ نسخها سنة ٢٢٨ هـ وفيها ذكر لبيعة العقبة الكبرى، واجتماع قريش فى دار الندوة ، والهجرة [3] .

ومن أشهر من كتبوا فى « المغازى » محمد بن مسلم الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ (٧٤١م) ، وهو قرشى من قبيلة زهرة . وقد درس فى المدينة وتنقل بين الحجاز ودمشق واتصل بالخلفاء الأمويين واشتهر بسعة معارفه وبأنه جمع علم شيوخه فى المدينة . وكان قوى الذاكرة شغوفا بجمع الأخبار ، وكان يقول : « ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشرى ولا بذله بذلى » . وكان الزهرى « لا يبقى فى المجلس شابا ولا كهلا ولا عجوزا ولا كهلة إلا سألهم حتى يحاول ربات الحجال» . [4] وقد امتاز باقباله على تدوين الحديث والأخبار التى يجمعها على غير المألوف فى ذلك الوقت . ولم يقتصر الأمر على التدوين للاستعمال الخاص بل يبدو أنه دون كثيرا من الأخبار والحديث بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك . وروى أحد تلاميذه أنه وجدت

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ج ٧ ص ٢٣٣ (ط. أوربا) .

(٢) يوسف هوروفتس : المغازى الأول ومؤلفوها، ترجمه حسين نصار (القاهرة ١٩٤٩ م) .

(٣) الدكتور عبد العزيز الدورى والأستاذ ناجى معروف : موجز تاريخ الحضارة العربية ص ٢٦٠ (بغداد ١٩٥٢ م) .

(٤) المرجع السابق ص ٢٦٠ .

فى مكتبة الأمويين بدمشق أكوام من المجلدات التى احتوت على المادة العلمية التى جمعها الزهرى [١]. وكيفما كانت الحال فإننا نرى أن خطوة جديدة تمت على يد الزهرى فى سبيل الوصول إلى الكتابة التاريخيه ، فإن المصادر القديمة تنسب إليه تأليف كتب ألف فيها بين مجموعات من الروايات والأحاديث فى موضوع واحد . فيروون أنه بدأ كتابا عن القبائل العربية الشماليه بأمر من خالد بن عبد الله القسرى ، كما ألف كتابا فى سيرة النبى (ص) ولكن هذا الكتاب لم يصل الينا وإنما نرى فى مجموعة الأحاديث المسماة « الزهريات » والتى رواها كتاب متأخرون ، كثيرا من الفقرات التى نقلها كتاب السيرة . [٢]

وكانت الأحاديث والأخبار التى جمعها الزهرى أساساً لكتب ألفها فى « المغازى » ثلاثة من تلاميذه [٣] : أحدهم معمر بن راشد اليمانى البصرى المتوفى نحو سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) والذى خلف كتابا فى الحديث والمغازى لايزال محفوظا فى إستنبول على رق الغزال وقد نسخت هذه النسخة فى طليطلة سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) [٤] . أما أشهر تلاميذ الزهرى فهو محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ (٧٦٨ م) وقد رحل إلى العراق واتصل بالمنصور وألف

---

(١) أنظر ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٢ ص ١٣٦ (طبعة أوربا) .

(٢) أنظر .

A. A. Duri : A Study on the beginnings of history writing in Islam (in Bulletin of the School of African and Oriental Studies, Feb., 1957)

(٣) أنظر : الدكتور صالح أحمد العلى : محاضرات فى تاريخ العرب ج ١ ص ٢١٧ — ٢١٨ (بغداد ١٩٥٥) .

(٤) الدكتور عبد العزيز الدورى والأستاذ ناجى معروف : موجز تاريخ الحضارة العربية ص ٢٦١ .

كتابا فى المغازى لم يصل الينا كاملا وإنما نقله الينا بشىء من التعديل والاختصار ابن هشام فى سيرته المعروفة . وكان « كتاب المغازى » لابن اسحق ينقسم فى الأصل إلى أجزاء ثلاثة : المبتدأ والمبعث والمغازى ، فعرض فى القسم الأول لتاريخ الرسالات قبل الإسلام وفى القسم الثانى لسيرة النبى (ص) فى مكة ، وفى القسم الثالث للدور المدنى من السيرة . ويشير ابن هشام (المتوفى سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م والذى روى كتاب بن اسحق عن تلميذه المباشر البكائى) فى مقدمته إلى التعديلات التى قام بها فى كتاب ابن اسحق ، مثل حذف تاريخ أهل الكتاب من آدم إلى إبراهيم وحذف بعض الحكايات اختصارا للكتاب. ومع ذلك فإن قسطا كبيرا مما حذفه بن هشام قد وصل الينا منقولا فى تاريخ الطبرى وفى أخبار مكة للازرقى [١] .

وقد أشار ابن النديم فى كتاب الفهرست إلى كتاب لابن أسحق سماه « كتاب الخلفاء » ولسنا نعرف شيئا عن مادة هذا الكتاب ولكن الراجح انه كان موجزا وأن ابن إسحق تناول فيه المغازى خاصة ، وإن كان الطبرى قد ذكره بين رواته فى تاريخ الخلفاء الراشدين .

وأعظم الذين خلفوا ابن اسحق فى الكتابة عن المغازى محمد بن عمر الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٣ م) وكان من أهل المدينة واتصل بالبلاط العباسى وعين قاضيا للرصافة فى خلافة المأمون وكان مقبلا على درس المعارف المنتشرة فى عصره فنسخ جميع المخطوطات التى استطاع الوصول إليها ، ويقال إنه خلف ستمائة قمطر من الكتب من نسخ غلامين مملوكين وأنه اشترى

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى الموازنة بين المؤرخين فى ديار الإسلام والمؤرخين الأوربيين فى العصور الوسطى ص ١٠ .

مخطوطات بألفى دينار . وقد أشار ابن النديم فى الفهرست وياقوت فى معجم الأدباء إلى مؤلفات عديدة للواقدى فى القرآن والحديث والفقه والتاريخ . ومن بين الأخيرة كتاب « التاريخ الكبير » وكتاب « الطبقات » و « السيرة » وعدد من الرسائل فى أخبار مكة وبيعة السقيفة، وسيرة أبى بكر والردة، ويوم الجمل، وصفين، وفتوح الشام، وفتوح العراق، وضرب الدنانير والدراهم . ولم تصل إلينا من هذه الكتب إلا مقتطفات فى كتب متأخرة . أما الكتاب الوحيد الذى وصل إلينا من مؤلفات الواقدى فهو « كتاب المغازى » وقد نشر فون كريمر Von Kremer الثلث الأول منه فى كلكتا سنة ١٨٥٦ م عن مخطوط غير كامل وجده فى دمشق ولكن فى المتحف البريطانى مخطوطا كاملا من هذا الكتاب[١] .

ومما يستحق الذكر أن الواقدى يوصف بالتشيع ولكنه كان من المتشيعين المعتدلين .

واشتهر من تلاميذ الواقدى مؤلف فى المغازى هو محمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدى والمتوفى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٥ م) . وكان مولده فى البصرة ثم رحل إلى المدينة وبغداد واتصل بالواقدى . ولا يذكر صاحب (الفهرست) من مؤلفات ابن سعد غير (كتاب أخبار النبى) ويبدو أن هذه السيرة وحدها كتبها ابن سعد بالصورة التى وصلت إلينا بعد أن رواها لتلاميذه ، فى حين حفظ كتابه (الطبقات) بصورته المعروفة للمرة الأولى على يد الحسين بن فهم (المتوفى سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م) . وجمع ابن معروف الكتابين فى كتاب

---

(١) أنظر يوسف هوروفتس : المغازى الأول ومؤلفوها ١١٩ — ١٢٠ .

واحد نحو سنة ٣٠٠ هـ (٩١٣ م) ، وتؤلف سيرة النبي (ص) الجزء الأول منه وتلى ذلك تراجم الصحابة والتابعين[١] .

ونلاحظ أن السيرة التي خلفها ابن سعد تعطينا في بعض المواضيع تفاصيل أوفى من ابن إسحق ، كما أن « أخبار النبي » في « طبقات » ابن سعد تضيف كثيرا عن رسائل النبي وسفاراته وتعني ببابين جديدين هما « علامات النبوة » و « صفة أخلاق رسول الله » مما كان أساسا لما صنف من الكتب المتأخرة في (الدلائل) و (الشمائل) . ويمتاز ابن سعد بأنه يذكر النص الكامل لكثير من الوثائق الأصلية . ولا ريب في أن كتابة مثل هذا المعجم التاريخي في تراجم النبي والصحابة والتابعين تؤلف حلقة جديدة في الوصل بين علم الحديث وبين الرواية التاريخية على النحو الذي كان معروفا بين القصاص والرواة . وقد نشرت (الطبقات الكبرى) لابن سعد في ليدن بين سنتي ١٩٠٤ و ١٩٢٨ على يد المستشرق إدورد سخاو[٢] .

* * *

رأينا أن كتاب السيرة النبوية وأصحاب كتب الطبقات ومؤرخي الفتوحات الإسلامية والمغازي كانوا أكبر الممهدين لكتابات المؤرخين في العصر العباسي حين بدأ المؤرخون يكتبون في التاريخ العام وأحوال الأمم والبلاد وتأثروا في ذلك بنماذج كتب التاريخ العام الفارسية والتي نقل بعضها إلى العربية مثل كتاب سير ملوك العجم الذي عربه ابن المقفع (ت ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م)

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٢) راجع عن نشأة علم التاريخ عند المسلمين القسم الأول من مقال الأستاذ جب Gibb (مادة « تاريخ » في ملحق دائرة المعارف الإسلامية) .

ومن أقدم كتاب التاريخ العام ابن قتيبة الدينورى المتوفى ببغداد فى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) . وكان ابن قتيبة كوفيا ولد بالكوفة وإنما سمى الدينورى نسبة إلى مدينة الدينور بالعراق العجمى وقد تولى قضاءها فنسب إليها . ولم يكن ابن قتيبة مؤرخا فحسب بل كان عالما فى النحو واللغة والعلوم الدينية والنقد الأدبى . ومن كتبه التاريخية (كتاب المعارف) وهو موجز فى تاريخ الخليقة والرسل والعرب فى الجاهلية والسيرة النبوية والفتوح والمغازى وأخبار الصحابة والتابعين والعرب والعجم وهو مطبوع فى مصر وأوربا .

ومن مؤلفاته كتاب (الامامة والسياسة) وموضوعه الخلافة وتاريخها وشروطها وتطورها حتى عصر الأمين والمأمون . أما كتاب عيون الأخبار فيشتمل على أبواب كثيرة وفيه فصول تعنينا بوجه خاص مثل كتاب السلطان وكتاب الحرب وكتاب العلم بأخبار العلم والعلماء . وكتاب عيون الأخبار مطبوع فى مصر . وقد طبعته دار الكتب على نفقتها . كما طبعت فصول منه فى ألمانيا بأشراف الأستاذ كارل بروكلمان .

ومن معاصرى ابن قتيبة أحمد بن أبى يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبى . كان جده من موالى الخليفة المنصور . وكان اليعقوبى رحالة ومؤرخا وجغرافيا اشتهر بميوله العلوية وجاب الأقطار الإسلامية وتوفى نحو سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧م) . وقد ألف اليعقوبى (كتاب البلدان) وهو أقدم الكتب التى وصلت إلينا من نوعه . وقد طبع فى المكتبة الجغرافية فى ليدن ، ونقل حديثا إلى الفرنسية مع كثير من الشروح والتعليقات على يد الأستاذ جاستون ڤييت Wiet . أما كتابه فى التاريخ فيعرف بتاريخ اليعقوبى وقد طبع فى ليدن على يد الأستاذ هوتسما فى جزءين : الأول فى التاريخ العام

القديم والثانى فى تاريخ الإسلام مرتب حسب الخلفاء إلى عصر المعتمد على الله سنة ٢٥٩ هـ .

وتاريخ اليعقوبى مطبوع أيضا فى مطبعة النجف الأشرف بالعراق .

وقد اشتهر من أهل الدينور مؤرخ آخر هو أبو حنيفة الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) أو ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) . وكان الدينورى من علماء اللغة والنبات والهندسة والحساب، وقد أخذ الدينورى عن البصريين والكوفيين . وقد وصلنا من مؤلفاته كتاب (الأخبار الطوال) وهو على نحو تاريخ اليعقوبى فهو يبدأ من آدم عليه السلام إلى انقضاء ملك يزدجرد ويذكر ملوك قحطان وملوك الروم وملوك الترك فى كل عصر . ثم يذكر الأئمة والخلفاء إلى آخر أيام المعتصم وثورة بابك الخرمى وحروبه . ونلاحظ أن هذا الكتاب أكثر اختصارا من تاريخ اليعقوبى فيما يتعلق بالتاريخ العام القديم وأوفى فى تاريخ بنى أمية . وقد طبع فى ليـــدن فى جزءين كما طبع فى مصر فى جزء واحد .

أما أشهر المؤرخين المسلمين على الإطلاق فهو الطبرى والمسعودى . وقد توفى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢م) فى بغداد . أما مولده فكان فى طبرستان على الشاطىء الجنوبى لبحر قزوين . وقد رحل إلى مصر والشام والعراق وطلب العلم فى بغداد وفى مصر . وذاع صيت الطبرى بتفسيره للقرآن وبكتابه « تاريخ الرسل والملوك » الذى يعرف بتاريخ الأمم والملوك والمشهور بتاريخ الطبرى . وقد اعتمد المؤرخون بعده على تاريخه مثل مسكويه وابن الأثير وابن خلدون وأبو الفدا والذهبى .

وقد اشتهر الطبرى بمثابرته على العمل حتى زعموا أنه قضى أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين صحيفة .

وكتابه أخبار الرسل والملوك أول كتب التاريخ الشاملة فى اللغة العربية . وقد بدأه بالخليقة ووقف فيه عند سنة ٣٠٢ هـ والمعروف أنه رتبه على السنين الهجرية واتبع فيه طريقة الاسناد إلى رواة الحوادث بالتسلسل . وقدقيل إن كتابيه فى التاريخ والتفسير كان كل منهما ٣٠ ألف ورقة وقدأشار عليه تلامذته باختصاره إلى الحجم الحالى وهو نحو عشر ذلك . وعلى كل فقد اعتمد فى تأليفه على الكتب التى كانت موجودة آنذاك وعلى ما جمعه من الأحاديث والروايات عن شيوخه وفى أسفاره المتعددة . وقد طبع تاريخه فى أوربا وفى مصر .

وتظهر فى تاريخ الطبرى الصلة الوثيقة بين علمى الحديث والتاريخ . والمعروف أن الطبرى محدث قبل أن يكون مؤرخا وأن تاريخه مكمل فى كثير من النواحى لكتابه الكبير فى تفسير القرآن الكريم .

ونلاحظ أن الجزء الأخير من تاريخ الطبرى ينم عن ضعف فى المادة وينذر بأن أساليب المحدثين لم تعد وحدها كافية لكتابة التاريخ فى الإسلام بعد أن تعقدت النظم الحكومية وأصبح الكتاب ورجال البلاط والمتصلون برجال الحكم خير مصدر لكثير من الأخبار[1] .

أما المسعودى وهو من نسل عبد الله بن مسعود فقد نشأ فى بغداد وتوفى سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧م) فى الفسطاط . وقد استن فى تأليف التاريخ سنة

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى الموازنة ٠٠٠٠ ص ١١ .

جديدة فصار لا يرتب الحوادث حسب السنين الهجرية بل جمعها تحت رءوس موضوعات من الشعوب والملوك والأسرات . وقد تبعه فى هذه الطريقة بعض المؤرخين ولا سيما ابن خلدون . وكان المسعودى من المعتزلة وساح فى طلب العلم فطاف أكثر أجزاء العالم الإسلامى وقضى الجزء الأخير من حياته فى سورية ومصر حيث ألف كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » وهو كتاب تاريخى جغرافى عظيم القيمة لم يكتف فيه المؤلف ببحث الموضوعات التى اعتادها المؤرخون المسلمون ، بل تطرق إلى تواريخ الهند والفرس والروم واليهود ، فأتى منها بأشياء طريفة حتى لقد أطلق الكتاب على المسعودى اسم « هيرودوت العرب » .

وقد ألف المسعودى كتابا آخر اسمه « التنبيه والاشراف » لخص فيه آراءه فى فلسفة التاريخ والكون وآراء الفلاسفة فى التدرج والعلاقة بين الحيوان والنبات والمعدن . كما كتب فيه عن التاريخ القديم وتاريخ المسلمين واهتم اهتماما كبيرا بالجغرافية ووصف البلدان المختلفة .

ومن أشهر المؤرخين المسلمين مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) والذى كان أمينا لمكتبة ركن الدولة الفضل بن العميد ثم دخل فى خدمة عضد الدولة بن بويه . وقد كان مسكويه متضلعا فى اللغة البهلوية والعربية . ويعتبر كتاب تجارب الأمم (الجزء الخامس والسادس نشره Amedroz وترجمه إلى الانجليزية Margoliouth — أكسفورد ١٩٢١ ، والجزء الأول منه طبع ليدن) مصدرا جديرا بالثقة فى أغلب الأحيان لأن مسكويه اعتمد على الطبرى إلى درجة كبيرة فى الحوادث التى لم يدركها ثم كان بعد ذلك متصلا بأكبر الشخصيات فى عصره قادرا على جمع المعلومات من مصادرها الصادقة .

وفضلا عن ذلك فانه لم يكن كاتبا مؤرخا فحسب بل كان فيلسوفا وطبيبا وخبيرا بأحوال الحرب والسياسة مما يجعل أحكامه صادقة لا سيما وأنه كان عادلا فيها .

ويدلنا على روح مسكويه أن أحسن ما كان يعجب به فى خلق عضد الدولة (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) انما هو شدة تسامحه . كذلك أظهر مسكويه فى كتابته عجز سيف الدولة ولم يخف هزيمته أحيانا ضد البيزنطيين مع أن سيف الدولة كان يعتبر بطلا دينيا كبيرا ويشاد بذكر حروبه ضد البيزنطيين .

الفصل الرابع

الجغرافية عند المسلمين وارتباطها بالتاريخ

ارتبطت كتابة التاريخ عند المسلمين منذ البداية بعلم تقويم البلدان أو الجغرافية . إذ وصفوا المدن والبلاد وذكروا طرقها وشعابها وحاصلاتها وأجواءها قبل أن يتأثروا بعلوم اليونان . ولعل من أهم الأسباب التى دفعت المسلمين إلى العناية بعلم تقويم البلدان هو معرفة البلاد التى فتحها العرب زمن الخلفاء الراشدين والأمويين وذلك لتنظيم الجزية والخراج .

كذلك كان المسلمون يرحلون إلى الأنحاء المختلفة فى العالم الإسلامى يطلبون العلم ويجمعون الحديث أو يدونون الأدب ومفردات اللغة من عرب البوادى أو يقومون بالوظائف الدينية والإدارية المختلفة من قبل الخليفة أو الأمير . كذلك عنى المسلمون بعلم تقويم البلدان عناية خاصة لحاجتهم إلى معرفة الطرق إلى مكة وذلك للقيام بفريضة الحج . هذا بالإضافة إلى عناية العرب بالتجارة ، ونحن نعرف أن العرب كانت لهم منذ العصور القديمة تجارة واسعة بين الشرق والغرب وقد اشتهرت اليمن بوجه خاص فى ميدان التجارة ، كما كان أهل الحجاز من أشهر تجار العرب .

وكان كتاب بطليموس الجغرافى هو الأساس الذى نسج على منواله العرب حين بدءوا فى نقل الجغرافية اليونانية إلى لغتهم . ولم يكتف العرب

بالنقل وإنما توسعوا فى هذا العلم وأخذوا يتجولون فى أنحاء البلاد المختلفة كما ذكرنا واستطاعوا بذلك أن يصححوا كثيراً من أخطاء اليونانيين .

وقد اشتملت الكتب التى ألفها المسلمون على معلومات كثيرة حول المدن الإسلامية من أواسط آسيا إلى الأندلس . وكان الجغرافيون المسلمون يرون أن البلاد الإسلامية تقع فى المنطقة المعتدلة بين المنطقة الحارة والباردة ، ولما كانت هذه المنطقة فى نظرهم أفضل المناطق لحياة الإنسان لذلك اعتبروا أنها أكثر أقسام العالم حضارة . وقد ترجمت جغرافية بطليموس إلى العربية على يد يعقوب بن إسحق الكندى قبل سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) وينتسب يعقوب إلى ملوك كندة ، ونزل جده بالبصرة ثم انتقل إلى بغداد وكان يعقوب الكندى عالماً بالطب والفلسفة والمنطق والرياضيات وعلم النجوم . كذلك ترجمت جغرافية بطليموس على يد ثابت بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ هـ (٩٠١م) وهو من صابئة حران ثم انتقل إلى بغداد واتصل بالخليفة المعتضـــد فأدخله فى جملة المنجمين ، وقد مهر أيضا فى علم الطب والفلسفة .

وقد نسج محمد بن موسى الخوارزمى على منوال بطليموس فألف كتابا سماه «صورة الأرض» أو رسم افريقية (èd. Hans V. Mzik, Wien 1916) وكان هذا الكتاب (القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى) أساسا لمؤلفات جغرافية تالية كما كان مصحوبا بخريطة رسمها الخوارزمى ومعه تسعة وستون عالما وذلك بأمر من الخليفة المأمون . وكان المسعودى (القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى) من الذين رجعوا إلى هذه الخريطة .

ومن المسلمين الذين زاروا الهند والصين عدة مرات رحالة عربى اسمه سليمان التاجر وصف سياحته فى الهند والصين حوالى سنه ٢٣٧ هـ (٨٥١ م)

ولهذا الوصف ذيل وضعه فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) مؤلف من سيراف اسمه أبو زيد حسن اعتمد فيه على ما سمعه من قصص الرحالة والتجار فى بحار الصين. وقد طبعت «رحلة سليمان التاجر» أو «سلسلة التواريخ» فى سنة ١٨١١ م على يد المستشرق لانجلس Langlès ثم نشرها المستشرق رينو Reinaud مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٤٥ . وقد ترجمها سنة ١٩٢٢ م إلى الفرنسية المستشرق فران Ferrand فى مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الاقصى[1] .

وتعتبر رحلة سليمان التاجر من أهم الآثار الإسلامية عن الرحلات البحرية فى المحيط الهندى وبحر الصين فى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى ، كما أنها مصدر مهم عن التجارة والعلاقات بين الشرق الأدنى والشرق الأقصى فى العصور الوسطى .

ومن الرحالة المشهورين أيضا ابن فضلان، وكان مولى للقائد محمد بن سليمان الذى أفلح فى هزيمة الدولة الطولونية وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية فى سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م)وقد أنفذه الخليفة المقتدر بالله العباسى فى سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١م) إلى البلغار بإقليم الفولجا ، وذلك بعد أن أسلم ملكهم وكتب إلى الخليفة يسأله (أن يبعث إليه من يفقهه فى الدين ، ويعرفه شرائع الإسلام ، ويبنى له مسجدا ، وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة فى جميع بلده وأقطار مملكته ، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له)

(١) أنظر : الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٤٥ م) ص ٢٣ .

والمعروف أن شعب البلغار أسس فى بداية العصور الوسطى دولتين أقدمهما التى زارها ابن فضلان وانتشر فيها الإسلام فى حوض الفولجا الاوسط (أو نهر اتل كما تسميه المصادر العربية) والأخرى فى حوض الطونة أو الدانوب .

أما كلمة بلغار فكانت تطلق على الشعب وعلى البلاد وعلى الحاضرة التى كانت تقع شرقى نهر الفولجا والتى لا يزال بعض أطلالها قائما على مقربة من مدينة قازان الحالية وعلى نحو ستة كيلو مترات من شاطىء الفولجا الأيسر .

وكان ابن فضلان الخبير الدينى فى السفارة التى أرسلها الخليفة العباسى والتى كان على رأسها مندوب من الخليفة لبحث الأمور السياسية والحربية . وقد كتب ابن فضلان رحلة عرفت باسمه ، وصف فيها الأماكن التى طرقها وتحدث بصورة واضحة عن البلغار وحضارتهم وعاداتهم وتجارتهم . وقد نشرت هذه الرحلة لأول مرة بعناية المستشرق الألمانى فرهن Fraehn فى سنت بطرسورج فى روسيا سنة ١٨٢٣ م بعنوان (رسالة ابن فضلان فى الروس) . وقد نشرت هذه الرسالة مع ترجمة ألمانية وأضاف إليها المستشرق فرهن ما وجده فى كتب العرب عن قبائل روسيا القديمة . وأفاد من هذه الرسالة المستشرق الروسى بارتولد فى المقال الذى كتبه عن (البلغار) فى دائرة المعارف الإسلامية .

وقد نقل المؤرخون والجغرافيون المسلمون عن رسالة ابن فضلان منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) مثل الاصطخرى والمسعودى . ثم نقل ياقوت الحموى أجزاء كبيرة منها فيما كتبه عن مادة « اتل » و « باشغرد » و « بلغار » و « خزر » و « خوارزم »[١] .

---

(١) أنظر : الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٢٦ — ٣١ .

ومن الجغرافين المسلمين ابن خرداذبة الخراسانى المتوفى حوالى سنة ٣٠٠هـ (٩١٢ م) وقد وصلنا من مؤلفاته « كتاب المسالك والممالك » . ويزيد من قيمة الكتاب أن مؤلفه كان عاملا على البريد فى أقليم الجبل (ميديا) بايران ويشتمل هذا الكتاب على احصاءات وبيانات وافية عن خراج البلاد وطرقها والمسافات بينها ونحو ذلك . وقد طبع هذا الكتاب فى ليدن ضمن مجموعة المكتبة الجغرافية على يد المستشرق دى جويه De Goeje . والظاهر أن الكتاب ألف فى منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . وعلى كل حال فقد انتفع بما فيه من معلومات طبوغرافية ابن الفقيه وابن حوقل والمقدسى .

ومن مشاهير الجغرافيين المسلمين ابن واضح اليعقوبى وقد كان علويا وألف فى نهاية القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى تاريخا تحدثنا عنه . وألف كتاب البلدان الذى طبع فى المكتبة الجغرافية فى ليدن والذى ترجمه حديثا الأستاذ ڤييت Wiet إلى الفرنسية . وهو كتاب قيم نظرا للأسفار التى قام بها اليعقوبى والوظائف التى تقلدها فى الدولة الطاهرية بخراسان والدولة الطولونية [١] ونظرا للبيانات التى جمعها من غيره فضلا عن أنه لم ينسج على منوال كثيرين ممن سبقوه بنقل ما كتبوه دون فحص أو تمحيص . ويمتاز هذا الكتاب بالإفاضة فى وصف بغداد وسامرا .

كذلك ألف قدامة بن جعفر (المتوفى سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م أو ٣٢٠ هـ / ٩٣٢م) « كتاب الخراج وصنعة الكتابة » تحدث فيه عن أقسام العالم الإسلامى

---

(١) أنظر Zaki M. Hassan: Les Tulunides pp. 271 — 272 (Paris 1933)

وعن الجباية وطرق البريد . وقد طبع نبذ من هذا الكتاب ضمن المكتبة الجغرافية (الجزء السادس) فى ليدن ١٨٨٩ م مع ترجمة فرنسية ، فضلا عن أن جرجى زيدان نشر كثيرا من محتوياته — ومن محتويات سائر الكتب فى الخراج والمسالك والممالك — فى كتابه تاريخ التمدن الإسلامى .

أما ابن الفقيه الهمذانى (ت أواخر القرن ٣ هـ / أوائل ١٠ م) فقد وصلنا من مؤلفاته « مختصر كتاب البلدان » وهـذا الكتاب طبع أيضا فى ليدن سنة ١٨٨٥ م (الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية) باشراف الأستاذ دى جويه وعليه تعليقات باللغة العربية واللاتينية . وقد ألف ابن الفقيه هذا الكتاب حوالى سنة ٢٧٩ هـ وصف به الأرض والبحار فى الصين والهند وبلاد العرب وغيرها وأفاض فى وصف البصرة والكوفة . وقد جاء ذكر هذا الكتاب كثيراً فى كتب المقدسى وياقوت .

كذلك كتب ابن رسته فى أصفهان حوالى سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م كتاب « الأعلاق النفيسة » وأصله معجم كبير فى الجغرافيا يتكون من بضعة مجلدات طبع أحدها فى المكتبة الجغرافية بليدن مع كتاب البلدان لليعقوبى فى الجزء السابع ١٨٩١-١٨٩٢ .

وموضوع كتاب الأعلاق النفيسة عجائب السموات ومركز الأرض وحجمها ووصف كثير من أقاليمها .

ومن الذين كتبوا فى موضوعات جغرافية خاصة الهمدانى المعروف بابن الحائك (ت ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) وهو ينسب إلى قبيلة همدان اليمنية . وقد وصلنا من مؤلفاته كتاب « صفة جزيرة العرب » ويبحث فى وصف بلاد العرب وجبالها ومساكنها ومدنها ولغاتها وآثارها ومعادنها وقد طبع على يد المستشرق

ملر Müller فى ليدن سنة ١٨٨٤م؛ وله كتاب آخر أسمه كتاب «الاكليل» فى أنساب حمير وملوكها وبه وصف بلاد اليمن . وقد وصلنا جزء منه نشره المستشرق Müller المذكور فى ليبزج سنة ١٨٧٩ م .

وممن نبغ فى الجغرافية من علماء المسلمين فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) شمس الدين أبو عبد الله المقدسى المولود فى القدس . وقد ساح المقدسى فى أكثر بلاد الإسلام شرقا إلى السند والهند وغربا إلى الأندلس وقد ذكر فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » أحوال الربع المعمور وبلاده وبره وبحره . وقال أنه لابد منه للمسافرين ولا غنى عنه للعلماء والرؤساء . ويقول المقدسى عن نفسه أنه رسم مع كتابه خريطة بين فيها الأقاليم وحدودها وخطوطها ولون فيه الطرق المعروفة باللون الأحمر والرمال الذهبية باللون الأصفر والبحار المالحة باللون الأخضر والأنهار بالزرقة والجبال المشهورة بالغبرة .

وقد طبع كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » فى القسم الثانى من المكتبة الجغرافية العربية فى ليدن ١٨٧٧ باشراف الأستاذ دى جويه وعليه بعض تعليقات وترجمتها إلى اللغة اللاتينية . وطبع ثانية مع ترجمة فرنسية وشروح وتعليقات باعتناء الأساتذة دوزى ودى جويه فى ليدن ١٩٠٦ . كذلك طبع فى الجزء الأول من المكتبة الهندية فى كلكتا سنة ١٨٩٧/١٩٠١ م مع ترجمة إنجليزية .

وقد أطنب المقدسى فى ذكر تجاربه كما أسرف فى وصف مزايا كتابه وما تكبد فى سبيل تأليفه ومن ذلك قوله «وما تم لى جمعه إلا بعد جولاتى فى البلدان، ودخولى

أقاليم الإسلام ، ولقائى العلماء ، وخدمتى الملوك ، ومجالستى القضاة ودرسى على الفقهاء ، واختلافى إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث ، ومخالطة الزهاد والمتصوفين ، وحضور مجالس القصاص والمذكرين ، مع لزوم التجارة فى كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحد والتفطن فى هذه الأسباب بفهم قوى حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها ، ودورانى على التخوم حتى حررتها ، وتنقلى إلى الأجناد حتى عرفتها ... الخ [1] » .

وكان المقدسى بوجه عام يتحرى التدقيق والتمحيص فيما يكتب كما كان يعنى بالأخبار الطريفة والعادات غير المألوفة .

ومن العلماء المسلمين الذين كتبوا فى الجغرافية أبو الريحان البيرونى الخوارزمى (ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨م) . والبيرونى نسبة إلى مدينـــة بيرون فى السند . وقيل إن السلطان محمود بن سبكتكين لما استولى على خوارزم صحبة معه فى فتوحاته فى بلاد الهند . وأقام البيرونى بين الهنود وتعلم لغتهم واقتبس علومهم ثم أقام بغزنة حتى مات بها، وقد ألف كتابا عن الهند بعنوان « تاريخ الهند » وقد طبع هذا الكتاب فى لندن — غوتا ١٨٨٧ / ١٨٨٨ ، مع ترجمة إنجليزية بإشراف الأستاذ سخاو Sachau (مستشرق ألمانى) . وهذا الكتاب من الكتب القيمة فى جغرافية الهند وتاريخها ، وقد كتب بأسلوب علمى خال من التحيز ، فلم يمنع إسلامه من الإخلاص فى الحكم على غير المسلمين .

وللبيرونى كتاب فى التاريخ والنجوم هو « الآثار الباقية عن القرون الخالية » . طبع فى ليبزج باشراف الاستاذ سخاو مع ترجمة إلى الانجليزية ١٨٧٦ — ١٨٧٩ وطبع طبعة ثانية فى ليبزج ١٩٢٣

(١) قارن : دكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٤٢ — ٤٣ .

ومن الرحالة المشهورين فى القرن الخامس الهجرى ناصر خسرو وهو من ايران وقام برحلات واسفار طويلة فى انحاء ايران وتركستان والهند وبلاد العرب والشرق الادنى وزار مصر الفاطمية فى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله فيما بين ٤٣٩ و ٤٤١ هـ (١٠٤٧ — ١٠٥٠ م) واعجب بها وبرخائها، واعتقد ناصر خسرو ان الفضل فى استقرار ورخاء وادى النيل انما يرجع إلى الدولة الفاطمية ومذهبها الاسماعيلى ، ولذا اصبح من اشد دعاة الاسماعيلية والمتعصبين للخلفاء الفاطميين بعد ان كان يتبع المذهب السنى ،وحينما عاد ناصر خسرو إلى خراسان أخذ يدعو للمذهب الاسماعيلى ولاحظ السلاجقة خطر هذه الدعوة فاضطهدوه والجأوه الى الفرار الى بلاد ما وراء النهر حيث توفى سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١ م) .

وقد ترك ناصر خسرو وصفا دقيقا لرحلته يعتبر من اهم المصادر فى دراسة الحضارة الاسلامية فى شرق الاسلام فى القرن الخامس الهجرى بعنوان «سفر نامة» وقد ترجم هذه الرحلة من الايرانية الى الفرنسية شارل شفر Charles Schefer (باريس ١٨٨١ م) وترجمها الى العربية يحيى الخشاب (القاهرة ١٩٤٥ م) .

ومن اعظم علماء الجغرافيا وراسمى الخرائط فى العصور الوسطى الشريف الادريسى الذى ولد فى سبتة بالمغرب الاقصى سنة ٤٩٣ هـ (١١٠٠ م) ودرس فى جامعة قرطبة ثم طاف فى الاندلس وشمالى افريقية وآسيا الصغرى، ويقال انه زار فرنسا وانجلترا ثم لبى دعوة الملك رجار Roger الثانى النورمندى فى بلاطه بصقلية، وقد وقع اختيار رجار الثانى عليه ليؤلف له كتابا شاملا فى وصف مملكته فى صقلية وجنوب إيطاليا وفى وصف سائر البلاد المعروف حينذاك، واصبح الادريس من ألمع رجال البلاط النورمندى وبقى اسم صقلية متصلا باسمه وصنف رسالته المشهورة « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق »

المعروفة باسم « كتاب رجار » قبل وفاة رجار سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٤م). كذلك صنع الادريسى للملك رجار اول كرة ارضية عرفت فى التاريخ وكانت من الفضة وزنتها ٤٤١ أقة وقد رسم عليها جميع انحاء الارض المعروفة حينذاك رسما غائرا مشروحا.

ومن أشهر الجغرافيين والمؤرخين والأدباء المسلمين ياقوت الحموى، وكان ياقوت رومى الأصل ولد حول سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٨ م) فى بلاد الروم وأسر فى حداثته وابتاعه تاجر حموى مقيم فى بغداد، فنشأ مسلما وعنى التاجر بتعليمه لينتفع به فى تجارته فتلقى العلوم المعروفة فى عصره وقام بعدة اسفار فى أعمال تجارية لسيده ولا سيما بمنطقة الخليج الفارسى. وقد أعتقه مولاه سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) وأخذ يبعثه فى شئون تجارته الى الاصقاع المختلفة ثم دب بينهما الخلاف فاحترف ياقوت نسخ الكتب . وقد أفاد ياقوت من ذلك كثيرا ومن تجارة الكتب بعد ذلك ومن أسفاره ورحلاته قبل عتقه وبعده فجال فى إيران وبلاد العرب وآسيا الصغرى ومصر والشام وبلاد ما وراء النهر . وأفاد ياقوت فائدة كبيرة من التنقيب فى خزانات الكتب ولا سيما من خزائن مدينة مرو . وقد صادف ياقوت وهو بخوارزم خروج التتر فى سنة ٦١٦ هـ . وقد ألف ياقوت « معجم البلدان » . وقد امتاز هذا المعجم بترتيبه على حروف الهجاء وبدقته واتساعه وجمعه بين الجغرافية والتاريخ والعلم والأدب[١] . وقد فرغ ياقوت من تأليف هذا المعجم فى سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٤ م) أما وفاة ياقوت فكانت فى ظاهر حلب سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م).

---

(١) أنظر : د كتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ١٠٢ — ١٠٥ .

الفَصْلُ الخَامِسُ

المؤرخون فى ديار الإسلام

ومنهج الـكتابة التاريخية

يحق للتراث الإسلامى أن يفخر بعدد كبير من المؤلفات لا يرقى إليه تراث اى حضارة اخرى فى العصور القديمة والوسطى ، ويستطيع الباحث فى التاريخ الإسلامى ان يفيد من مؤلفات تاريخية كثيرة جدا ، ومن مؤلفات اخرى يبدو أنها ليست ذات صلة وثيقة بالتاريخ ولـكن الباحث يستطيع ان يستخرج منها معلومات كثيرة عن الجوانب المختلفة فى الحضارة الإسلامية .

وكان معظم المؤرخين المسلمين يتجهون إلى الـكتابة التاريخية لتوفرهم على هذه الدراسة ، ولم يكونوا يؤلفون تبعاً لأمر من القائمين بالحـكم . فلم يكن هناك مؤرخون رسميون متصلون بالخلفاء والأمراء إلا فيما ندر ، وذلك على الرغم من ان عدداً من المؤرخين كانوا على صلة وثيقة بالحـكومة فـكان من بينهم الوزراء والـكتاب والقضاة .

وكان بعض المؤرخين المسلمين فى سعة من العيش ، كما كان من بينهم من احترف التعليم أو التجارة ، ويبدو أن بعض الفقراء من بينهم كانوا يكسبون شيئا من المال يدفعه التلاميذ الذين يدرسون عليهم وينقلون عنهم الروايات التاريخية .

ومن أمثلة كتب التاريخ ذات الطابع الحكومى كتاب التاج الذى ألفه الوزير إبراهيم الصابى (كاتب عز الدولة بختيار) فى تاريخ الدولة البويهية . وقد نقل مسكويه فى « تجارب الأمم » كثيرا مما جاء فى ذلك الكتاب[1] .

ولكن هذه الكتب الرسمية فى كتابة التاريخ الإسلامى official historiography كانت نادرة ، فالمعروف أن الخلفاء والحكام كانوا يطلبون إلى الأدباء والفقهاء أن يؤلفوا فى موضوعات معينة ،مثلما نرى فى كتاب الخراج لأبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة فإننا نعرف أن الخليفة هرون الرشيد وجه إليه أسئلة مختلفة أجاب عنها أبو يوسف فى كتابه الخراج .

والظاهر أن أولى الأمر لم يفعلوا ذلك مع المؤرخين ومع ذلك فإننا نعرف أن الخلفاء والأمراء كانوا يأمرون للمؤرخين فى بعض الأحيان بالعطاء والجوائز المالية . والظاهر كما يبدو بوجه عام أن عدداً كبيراً من المؤرخين المسلمين كانوا يهدفون إلى الإستقلال فى الرأى وإلى توخى الصدق فى الرواية وإنهم لم يتأثروا بالحكام تأثرا كبيرا . ومن أمثلة هؤلاء المؤرخين البلاذرى والطبرى وهلال الصابى ومسكويه والمسبحى المصرى وابن حيان القرطبى. وحسبنا مثلا أن مسكويه يعرض لتأسيس دولة بنى بويه من دون أن يخفى جرائم مؤسسيها .

ولم يتأثر المؤرخون المسلمون تأثرا كبيرا بغيرهم من المؤرخين فى الأمم القديمة أو التى عاصرتهم . فلم يصل إلينا شىء يشهد بأنهم عرفوا المؤرخين اليونان عن طريق ترجمات عربية .

كذلك لم يكن للكتابة التاريخية السريانية تأثير على المؤرخين المسلمين وذلك على الرغم مما نعرفه من أن السريان كانت لهم مدرسة مشهورة فى الرها وفى نصيبين ،

(١) أنظر الدكتور زكى محمد حسن: دراسات فى الموازنة . . ص ١٤ — ١٥ .

ثم أسس لهم كسرى أنو شروان مدرسة فى جنديسابور ، وأنهم كانوا يتعلمون لغة اليونان وينقلون إلى السريانية الكتب اليونانية وأنهم أصبحوا بعد ذلك واسطة لاقتباس العرب كثيرا من التراث اليونانى . والمعروف أن ما اقتبسه العرب منهم كان على الخصوص فى المنطق والفلسفة والرياضيات والفلك والجغرافيا وليس فى التاريخ. والواقع أن التأثير الأجنبى الذى نلمسه عند بعض المؤرخين المسلمين القدماء إنما كان فى كتب التاريخ الفارسية فيما يختص بالتاريخ الإيرانى القديم .

ونلاحظ أن معظم المؤرخين فى ديار الإسلام — كما كان الحال فى الغرب عند معظم مؤرخى العصور الوسطى — كانوا يميلون إلى ذكر الأساطير العجيبة والخرافات والأشياء الخارقة للمادة وينسبون كل ما هو قوى أو عظيم إلى الجن أو إلى آدم ، كما كانوا يبالغون فى الإحصاءات المختلفة الخاصة بالجند أو الأموال أو العمال أو مادة البناء ... إلخ . وكانت هذه المبالغات ظاهرة بوجه خاص حين يتحدثون عن العصر الجاهلى مثلما نرى فى كتاب الاكليل لابن الحائك الهمدانى وتاريخ الطبرى ومروج الذهب للمسعودى . كذلك نلاحظ أن المؤرخين فى ديار الإسلام وفى أوربا فى العصور الوسطى كانوا ينقلون نقلا كثيرا جدا عن مؤلفات من سبقوهم ، وفى بعض الأحيان كانوا ينقلون عن مؤلفات الذين عاصروهم بل إنهم كانوا ينقلون أحيانا كتابا كلها. وفى معظم الأحيان كان الذى ينقل يذكر المصدر الذى نقل عنه وأحيانا كان البعض لا يفعل ذلك[١] .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى الموازنة ... ص ٢٣ — ٢٤ .

ونلاحظ أن النقل كان مألوفا فى العصور الوسطى وربما دعا إلى ذلك قلة النسخ التى كانت تكتب من المؤلفات وعدم انتشارها انتشاراً كافياً بسبب غلاء الورق وعدم اختراع الطباعة . وكان المؤرخون لا يرون فى ذلك أدنى حرج ماداموا يذكرون المصدر الذى ينقلون منه. وربما كان سبب ذلك أيضاً انعدام العنصر الشخصى فى الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى . فلم تكن البحوث التاريخية التى تقوم على جمع الأصول من المصادر المادية القديمة والكتب. وعلى نقد الروايات التاريخية وتنظيمها وتعليلها وإيضاحها واستنباط الحقائق منها والربط بينها ، لم تكن هذه البحوث العلمية التاريخية قد ظهرت بعد .

كذلك كان بعض المؤرخين يقبلون على كتابة المختصرات لمؤلفاتهم أو لمؤلفات غيرهم . وقد انتقد ابن خلدون هذه المختصرات فى الفصل الذى عقده فى مقدمته بعنوان « فى أن كثرة الاختصارات المؤلفة فى العلوم مخلة بالتعليم[1] » .

وقد أخذ المؤرخ التركى حاجى خليفه — (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م) كتابة المختصرات فى التأليف بعين الاعتبار حين كتب عبارته المشهورة فى كتابه « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » فقال : « إن التأليف على سبعة أقسام، لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها وهى: إما شىء لم يسبق إليه فيخترعه، أو شىء ناقص يتممه، أو شىء مغلق يشرحه ، أو شىء طويل يختصره دون أن يخل بشىء من معانيه ، أو شىء ، متفرق يجمعه ، أو شىء مختلط يرتبه ، أو شىء ، أخطأ فيه مصنفه فيصلحه . »

ومن الملاحظ أن معظم المؤرخين فى ديار الإسلام كانوا يوردون عدة

---

(١) أنظر ابن خلدون : المقدمة ص ٥٣٢ — ٥٣٣ .

روايات تاريخية متناقضة دون التعرض لنقدها أو الترجيح بعضها على بعض ، فضلا عن الاستطراد الذى يخرج المرء عن الموضوع الأساسى إلى الكلام على موضوعات جانبية . ولا شك أن هذه كانت أمورا عادية فى العصور الوسطى، لأن مناهج البحث العلمى فى التاريخ وتنظيمها إنما يرجع إلى القرنين التاسع عشر والعشرين[١].

---

(١) أنظر الدكتور زكى محمد حسن دراسات فى الموازنة ص ٢٦ ، وهناك مراجع خاصة بمناهج البحث التاريخى نذكر منها :

Crump, C. G.: History and Historical Research (London 1928).

Feuter, E.: Histoire de l'Historiographie Moderne (Paris 1914).

Fling, F. M.: The Writing of History. An Introduction to Historical Research (Yale 1926)

Vincent, T. M.: Aids to Historical Research (New York 1934)

Oman, Ch.: On the Writing of History (London 1939)

Langlois, C. V. et Seignobos, C.: Introduction aux Etudes Historiques (Paris 1898)

Chaterji, M.M.: History as a Science (London 1927)

علم التاريخ للأستاذ هرنشو Hearnshaw وترجمة الأستاذ عبد الحميد العبادى (القاهرة ١٩٣٧ م) .

الدكتور أسد رستم : مصطلح التاريخ (بيروت ١٩٣٩ م) .

الدكتور حسن عثمان : منهج البحث التاريخى (القاهرة ١٩٤٣ م) .

الدكتور على إبراهيم حسن : استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ المصرى الوسيط (القاهرة ١٩٤٩ م) .

ونلاحظ أيضاً أن المؤرخين فى ديار الإسلام وفى العصور الوسطى عامة كانوا يخلطون الروايات التاريخية الصحيحة بروايات أخرى خرافية أو مدسوسة أو بعيدة الإحتمال أو أملتها أغراض الرواة وميولهم . كذلك نلاحظ أنهم كثيراً ما كانوا يخطئون فى رواية الأحداث السياسية بسبب الاعتماد فى البداية على الرواية الشفهية وبسبب النقل عن المؤلفات السابقة من دون نقد أو تحقيق.

كذلك نلاحظ فى كتب التاريخ التى ألفت فى العصور الوسطى قلة العناية بدراسة المجتمع والنظم وسير الأداة الحكومية والمرافق العامة وسائر النواحى الاجتماعية والاقتصادية والمالية والزراعية والصناعية التى نستطيع أن نتبين منها أحوال الشعوب الإسلامية ، حتى ليتبادر إلى الذهن أن المؤرخين كانوا لا يظنون أن مثل هذه الدراسات من أهداف الكتابة فى التاريخ . ولعل للمؤرخين بعض العذر فى هذا لأن التطور فى أحوال المجتمع ونظمه فى ديار الإسلام فى العصور الوسطى كان بطيئا فكانت هذه الأحوال والنظم ملموسة للقارىء فى ذلك الحين .

وجدير بالباحث أن يعرف سيرة المؤلف ليتبين ميوله وأهواءه وأثرها فى كتاباته فقد يكون المؤلف مشايعا لمذهب أو لحزب أو لفئة معينة ممن يكتب عنهم فيناصرهم من غير قصد ، أو يذهب فى ذلك إلى تعمد الكذب فى الرواية ، أو إلى تحريف الحقائق وحذف بعضها ليقود القارىء إلى نتائج معينة ترفع من شأن الذين يشايعهم أو تدفع عنهم مسئولية أو عاراً . وقد يندفع المؤلف إلى البعد عن العدالة بسبب الحرص على تملق أولياء الأمور ، أو على مداراتهم والنجاة من اضطهادهم .

وينبغى للباحث فى التاريخ أن يتذكر أن كتب التاريخ الإسلامى التى ألفت بين القرنين الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) والتاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ليست كلها مصادر أصلية لهذا التاريخ ، فهى لا تستوى جميعا من حيث قيمتها بين المصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامى .

فهناك مؤلفات عرض فيها أصحابها لأحداث شهدوها أو كانت معاصرة لهم أو قريبة العهد بهم جدا ، ولاشك فى أن مثل هذه المؤلفات مصادر أصيلة يجب الاعتماد عليها مع مراعاة قواعد البحث العلمى من حيث نقد المصادر والروايات . ومن أمثلة هذا النوع سيرة أحمد بن طولون للبلوى ، وسيرة أحمد بن طولون لابن الداية ، وسيرة الأخشيد لابن زولاق ، و « أخبار الراضى والمتقى بالله » للصولى ، و « سيرة صلاح الدين لابن شداد » وكتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) لأبى شامة .

ومن بين المصادر التاريخية كتب عنى فيها مؤلفوها القدامى بأحداث عصرهم أو التى سبقته بفترة قصيرة ؛ وكان أسلوب تأليفهم يشبه إلى حد كبير أسلوب الصحفيين المحدثين فى جمع المعلومات ، فكانوا يتصلون بأعلام المعاصرين وبرجال الجيش والإدارة ويسمعون منهم الأحاديث عن الموضوعات المختلفة . وكان بعض هؤلاء المؤلفين ممن اشتركوا فى الحروب أو فى الدواوين أو فى الوزارة أو شغلوا مناصب رئيسية فى الدولة فكان اعتمادهم عظيما على اتصالهم بالرجال وبالأحداث نفسها . ولأولئك المؤلفين أهمية خاصة فى الكشف عن القيم الأخلاقية فى عصرهم مما يتجلى فى المثل العليا والأهداف عند الأشخاص الذين يصورونهم ، كما أننا نستطيع فى كثير من الأحيان أن نستنبط من مؤلفاتهم بيانات كثيرة عن الحياة اليومية فى عصرهم . ويدخل فى هذا النوع من

التأليف ما كتبه بعض العظماء والعلماء عن سيرة حياتهم . ومن ذلك سيرة أسامة بن منقذ التى كتبها هذا الأمير العربى المتوفى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) والذى كان وثيق الصلة بكثير من الأحداث السياسية فى عصره . وقد نشر هذه السيرة درنبور H. Derenbourg : Usâma Ibn Munquid. Paris 1889, Publ. Ec. des Langues Or., t. XII.

ونشرها فيليب حتى فى برنستون Ph. Hitti : Usamah's memoirs, Princeton 1930.

ونشرها فى القاهرة محمد حسين : بعنوان أسامة بن منقذ .

* * *

وقد مر بنا الكلام عن مؤلفات كتبت فى فجر الإسلام وكان أصحابها يحذون حذو رجال الحديث فى الرواية فيروون أحداثا كانوا معاصرين لها وأخرى وصلت اليهم عن طريق الرواية . وهذه المؤلفات تعد من المصادر الأصيلة أيضا، وطبيعى أن الاعتماد عليها لا يكون إلا بعد النقد العلمى الصحيح للروايات وخير مثال لهذا النوع تاريخ الرسل والملوك للطبرى .

* * *

أما النوع الثانى من المؤلفات القديمة فإن أصحابها يعرضون لتاريخ العرب والمسلمين قبل عصرهم ، كما يكتبون أيضاً فى التاريخ المعاصر لهم . ويكون القسم الأول من كتبهم منقولا عن كتب سابقة ولكن الجزء المعاصر يمتاز بالإحاطة والدراية وطبيعى أن الاعتماد فى مثل هذه المؤلفات يكون على الأقسام التى يتحدثون فيها عن الأحداث المعاصرة أو عن تاريخ البلاد التى يعرفونها جيداً من ديار الإسلام فهى وحدها التى تعتبر من المصادر القديمة الأصيلة . ومن

أمثلة هـــذا النوع كتاب « تجارب الأمم » لابن مسكويه الذى كان طبيباً ووزيراً وتولى الوزارة لبنى بويه ، فإن المؤلف يجمع من الكتب التاريخية السابقة ، ما يكتبه إلى أن يصل إلى أحداث سنة ٣٤٠ ﻫ ولكنه يعتمد فيما يكتبه بعد ذلك على روايات شهود عيان وعلى مشاهداته وخبرته الشخصية . وكذلك نرى أن الجزء الثمين من كتاب « العبر وديوان المبدأ والخبر » لابن خلدون والذى يعتبر من المصادر الأصيلة إنما هو القسم الخاص بتاريخ البربر والأسرات الحاكمة فى شمال إفريقية ، وهو القسم الذى يمتاز بالشمول والعمق والدقة والأحكام الصائبة حتى أنه ليرفع صاحبه إلى المرتبة الأولى بين المؤرخين ، كما ترفعه مقدمة هـذا التاريخ إلى مرتبة الأعلام بين المفكرين قاطبة بوصفها أبدع ما كتب فى فلسفة التاريخ الإسلامى ولأنها تضع أساس كثير من المبادىء الأساسية فى علم الاجتماع .

* * *

وهناك مؤلفات قديمة ولكنها ثانوية نقل فيها أصحابها عن كتب من النوعين السابقين أو عن كتب ثانوية أخرى ، ومثل هذه المؤلفات ليست مصادر أصيلة لأن كلا منها مختصر لكتاب معين أو جمع من عدة كتب ، تشبه إلى حد كبير كتب التاريخ التى يؤلفها المؤرخون فى العصر الحديث ولكنها تقل عن كثير منها فى سلامة المنهج .وعلى الرغم من أن هذا النوع لا يعتبر من المصادر الأصيلة ، فإن كثيراً منها نافع جداً لأنه منقول عن مصادر أصيلة قد يكون من بينها ما لم يصل إلينا ، فضلا عن أن الرجوع إليها يفيد الباحث من حيث التعرف على وجهات النظر المختلفة ، ومن أمثلة هذا النوع تاريخ الخلفاء للسيوطى .

ويجدر بنا الإشارة إلى أن بعض المؤرخين المحدثين كتبوا دراسات طيبة عن الكتابة التاريخية والمؤرخين المسلمين نذكر من بينها :

1 — Wüstenfeld, F. : Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke (Gottingen, 1882)

فى هذا الكتاب أحصى وستنفلد ٥٩٠ مؤرخاً من العرب من مؤرخى عشرة القرون الأولى بعد الهجرة .

ونلاحظ أنه مضى على ظهور هذا الكتاب نحو ثلاثة أرباع قرن . وقد تقدمت فى هذه الحقبة البحوث المختلفة عن المؤرخين المسلمين والعرب فى العصور الوسطى ، كما كشفت ونشرت مخطوطات تاريخية مختلفة .

2 — Margoliouth, D. S. : Lectures on Arabic Historians (Calcutta, 1930)

وفى هذا الكتاب يعرض مارجليوث للمؤرخين فى القرون الستة الأولى بعد الهجرة (٧ — ١٢ م) ولا يعنى بتحليل مؤلفاتهم وبيان قيمتها بقدر ما يعنى بتراجمهم .

3 — Brockelmann, C. : Geschichte der Arabischen Litteratur (2 Vols. Weimar, Berlin 1898 — 1902, Supplementband 3 vols. Leiden 1937—1942)

وهذا المعجم الثمين يعرض لجميع الكتب التى ألفها العرب فى العصور الوسطى فيتحدث عنها فى أقسام وفقا للعصور التاريخية ، ويضم كل قسم الكلام على المخطوطات والكتب وفقا لموادها . ويعنى عند الكتابة عن كل مؤلف بسيرته وبيان قائمة مؤلفاته ومكان حفظ المخطوطات التى وصلت إلينا ، والطبعات

التي نشرت منها وما كتب اختصارا لها أو تعليقا عليها . وقد رتب بروكلمان مادة الأجزاء الثلاثة التي نشرها بين سنتي ١٩٣٧ و ١٩٤٢ م ذيلا للجزئين الأساسيين من الكتاب وجعل الجزء الأول من الملحق ذيلا لما كتب في الجزء الأول ، والثاني ذيلا لما كتب في الجزء الثاني . أما الجزء الثالث من الملحق فقد جعله ذيلا للأجزاء الأربعة جميعا . وقد انتفع بروكلمان فيما كتبه عن المؤلفات التاريخية بما كتبه قبله وستنفلد في كتابه عن المؤرخين العرب ومؤلفاتهم .

4 — Article "Tarikh" (Encyclopaedia of Islam, Supplement), by H. R. A. Gibb.

وهو بحث طيب عن نشأة الكتابة التاريخية وتطورها في الإسلام .

5 — Sauvaget, J. : Introduction à l'histoire de l'Orient Musulman (Paris, 1946).

6 — Rosenthal : A History of Muslim Historiography (Leiden, 1952)

7 — Heyworth — Dunne, G : A basic Bibliography on Islam (Cairo, 1953).

٨ — جورجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي (٥ أجزاء — القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦) .

٩ — يوسف اليان سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة (القاهرة ١٩٢٨ — ١٩٣٠ م)

١٠ — يوسف هوروفتس : المغازى الأولى ومؤلفوها (ترجمة حسين نصار . القاهرة ١٩٤٩)

١١ — الدكتور عبد العزيز الدورى .

A. A. Duri : A Study on the Beginnings of History Writing in Islam (in Bulletin of the School of African and Oriental Studies, Feb., 1957)

الفصل السادس

ابن خلدون وكتابة التاريخ

يعتبر ابن خلدون ٧٣٢ — ٨٠٩ هـ (١٣٣٢ — ١٤٠٦ م) أهم من أرخ للحضارة الإسلامية من المؤرخين المسلمين القدماء . فبينما نرى أن غيره من المؤرخين المسلمين اتجه إلى سرد الأحداث التاريخية والتأريخ للشخصيات ولم يعنوا بدراسة العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، إذا بابن خلدون يعقد فى مقدمته المشهورة فصولا طويلة للكلام على نظم الحكم والسياسة فى العالم الإسلامى ويبحث ما عرفه المسلمون من مهن وصنائع ونظم اقتصادية وعلوم وفنون ، ويضع لكتابة التاريخ منهجا جديدا من نقد الحقائق وتعليلها ، ويجعل المجتمع وتكوينه ونظمه وتطورها موضوعا للدرس العميق والتفكير الحر .

ولكن مما يؤسف له أنه لم يطبق هذا المنهج حين عرض هو نفسه لكتابة تاريخه المشهور : « العبر وديوان المبتدأ والخبر » .

وقد كتب ابن خلدون متحدثاً عن فن « التاريخ » فى مقدمة كتابه (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) : فنراه يذكر المعنى الظاهر لعلم التاريخ والباطن قائلا : « إذ هو فى ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال ، وتؤدى لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال ،

وحان منهم الزوال . وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد فى علومها وخليق . وإن فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها ، وسطروها فى صفحات الدفاتر وأودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها ، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها . واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها ، وأدوها إلينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الحديث ولا دفعوها ، فالتحقيق قليل ، وطرف التنقيح فى الغالب قليل والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل ، والتقليد عريق فى الآدميين وسليل ... والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل [١] ، والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل .... » [٢].

وقد ذكر ابن خلدون [٣] ولع الناس بالمبالغة قائلا : « وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا فى الحديث عن عساكر الدول التى لعهدهم أوقريبا منه ، وتفاوضوا فى الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى ، أو أخذوا فى إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين ، توغلوا فى العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الإغراب ، فإذا استكشف أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت أحوال

---

(١) تمقل : نظر : من مقله أى نظر إليه ، ومقلته عينى أى نظرته .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص٣ — ٤ (ط. الكشاف ببيروت) «فصل المقدمة فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شىء من أسبابها » .

(٣) المقدمة ص ١١ .

أهل الثروة فى بضائعهم وفوائدهم ، واستجليت عوائد المترفين فى نفقاتهم ، لم تجد معشار ما يعدونه ، وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد » .

ثم يتكلم ابن خلدون(١) عن الأخبار الواهية التى يأتى بها بعض المؤرخين فيقول : « ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة فى أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى إفريقية والبربر من بلاد المغرب . . . وكذلك يقولون فى تبع الآخر وهو أسعد أبو كرب . . . أنه ملك الموصل وأذربيجان ولقى الترك فهزمهم . . . . وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس وإلى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر وإلى بلاد الروم ، فملك الأول البلاد إلى سمرقند وقطع المفازة إلى الصين فوجد أخاه الثانى الذى غزا إلى سمرقند قد سبقه إليها فأثخنا فى بلاد الصين ورجعا جميعا بالغنائم وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهى بها إلى هذا العهد وبلغ الثالث إلى قسطنطينية فدرسها ودوخ بلاد الروم ورجع .

وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة فى الوهم والغلط وأشبه بحديث القصص الموضوعة ... الخ . »

ويعرض أيضا ابن خلدون(٢) لعدم تدقيق المؤرخين ونقدهم فيقول عن نكبة البرامكة : «ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ماينقلونه كافة فى سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد ... وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبويها وجلالها ...... فأين يطلب

(١) المقدمة ص ١٢ — ١٤ .

(٢) المقدمة ص ١٤ — ١٦ .

الصون والعفاف إذا ذهب عنها ، أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدا من بيتها ، أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحي وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم ، وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجافهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ...... فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ... الخ».

وكذلك يحدثنا ابن خلدون عن أخطاء المؤرخين فيما يتعلق بنسب الفاطميين ، أو العبيديين — كما تسميهم بعض المراجع نسبة إلى رأس دولتهم عبيد الله المهدى — فيقول : « ومن الأخطاء الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والإثبات فى العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم والطعن فى نسبهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق يعتمدون فى ذلك على أحاديث نفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس تزلفا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم ...... »[1]

وكذلك يذكر ابن خلدون[2] فيما يتعلق بنسب إدريس العلوى : « ومثل هذا وأبعد منه كثيراً ما يتناجى به الطاعنون فى نسب إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب (رضوان الله عليهم) الإمام بعد أبيه بالمغرب الأقصى ويعرضون تعريض الحد بالتظنن فى الحمل المخلف عن إدريس الأكبر إنه لراشد مولاهم قبحهم الله وأبعدهم ما أجهلهم ...... »

(١) المقدمة ص ٢١ .

(٢) المقدمة ص ٢٣ — ٢٤ .

الفصل السابع

المصادر والأصول للمؤرخين المحدثين فى التاريخ الإسلامى

---

(١)

ذكرنا من قبل أن على الدارسين فى التاريخ الإسلامى أن يفطنوا إلى أهمية تاريخ الحضارة فى بحوثهم فالواقع أن التاريخ السياسى وتاريخ الحضارة لازمان معا لفهم ماضى العرب وتراثهم فى ركب المدينة كما هو لازم لفهم ماضى أى أمة فهما صحيحا يبرر دراسة الماضى للاستعانة به فى فهم الحاضر وإعداد العدة للمستقبل ،

ومما يجدر ذكره أن دراسة المجتمع ونظمه الاقتصادية والاجتماعية لم تكن مجهولة تماما عند المؤلفين المسلمين فى العصور الوسطى . فإننا نجد قسطا كبيراً منها ولكننا لا نظفر بها مجموعة أو مركزة عند طائفة معينة منهم ، فإننا نعثر عليها فى كتب التاريخ والأدب والطبقات والفقه وكتب الخطط والرحلات وتقويم البلدان .

* * *

كتب الخطط

المعروف أن الخطة (بكسر الخاء) وجمعها خطط هى الأرض التى ينزلها الإنسان ولم ينزلها من قبله نازل ، أو ما يختطه الإنسان لنفسه من الأرض

أى يجعل لها حدوداً ليعلم أنها له . وقد اتسع معناها فامتد إلى الحى الذى تختص به القبيلة أو أصحاب مهنة واحدة أو طائفة من الناس عند تعمير مدينة من المدن .

وقد كتب بعض المؤرخين المسلمين القدماء فى الخطط ولكن أشهر كتب الخطط « كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » للمقريزى . والمقريزى فى هذا الكتاب يصف المدن والأحياء المختلفة والأسوار والعمائر ويتكلم أيضا على السكان وعلى مشيدى العمائر المختلفة كما يتطرق إلى تاريخ مصر فى العصور الإسلامية ويعنى عناية خاصة كما ذكرنا بآثارها وبحضارة الشعب المصرى آنذاك .

* * *

كتب الطبقات

ومن المؤلفات العربية التى تضم كثيراً من البيانات عن الأحوال السياسية والاجتماعية والأدبية فى المجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى كتب التراجم ، وكتب الطبقات التى تتألف من سير طائفة معينة من الفقهاء أو العلماء أو الأدباء أو أصحاب المهن جيلا بعد جيل ، ومن بين تلك المؤلفات :

ابن خلكان : وفيات الأعيان
ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات
ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة
الصفدى : الوافى بالوفيات
ابن القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء

ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء
السيوطي : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة
الشوكانى : البدر الطالع فى أعيان القرن السابع
ابن الفوطى : الحوادث الجامعة عن أخبار المئة السابعة
ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة
السخاوى : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع
الزبيـــدى : طبقات النحويين
ابن بشكوال : الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم
السبكى : طبقات الشافعية
السلمى : طبقات الصوفية
ابن يعلى : طبقات الحنابلة
ابن المعتز : طبقات فحول الشعراء
ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء
ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة
الخشنى : قضاة قرطبة
النباهى : قضاة الأندلس
الرازى : كتاب الجرح والتعـــديل (من تراجم رجال الحديث النبوى)
ابن الأثير : اللباب فى الأنساب
العيدروسى : النور السافر فى أخبار القرن العاشر
الغزى : الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة

كتب الجغرافية

ذكرنا من قبل أن الجغرافية عند المسلمين كانت وثيقة الصلة بالتاريخ . وذكرنا أن المؤلفات الجغرافية العربية تضم حقائق كثيرة يجب الإفادة منها فى البحوث التاريخية ولا سيما أن كثيراً منها كان يعنى بوصف البلاد وبيان المسافات بينها وحاصلات كل منها وما يؤلف شهرتها وعادات أهلها .

ونضيف إلى ما ذكرنا أن من بين تلك الكتب ما يهدف عدا ذلك إلى تثقيف القارىء وتسليته فيعرض لكثير من النواحى التاريخية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية مما تصبح معه مصدراً عظيما لأحوال العالم الإسلامى فى العصور الوسطى .

وقد عنى المستشرقون بطبع طائفة من الكتب التى ألفها المسلمون فى تقويم البلدان وعلى رأسها المجلدات التى أخرجها دى جويه De Goeje باسم المكتبة الجغرافية العربية Bibliotheca Geographorum Arabicarum وتشمل .

المجلد الأول :— الاصطخرى : مسالك الممالك (الطبعة الثانية . ليدن ١٩٢٧)

المجلد الثانى :— ابن حوقل : المسالك والممالك (ليدن ١٨٧٣) ثم نشرت له طبعة أكمل ومصحوبة بالخرائط على يد كرامرز J.H. Kramers فى ليدن ١٩٣٨

المجلد الثالث :— المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (الطبعة الثانية . ليدن ١٩٠٦)

المجلد الرابع :— شروح وفهارس للمجلدات الثلاثة الأولى

المجلد الخامس:— ابن الفقيه الهمذانى : مختصر كتاب البلدان (ليدن١٨٨٥)

المجلدالسادس:— ابن خرداذبة : المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩)

المجلد السابع :— ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، واليعقوبى . كتاب البلدان (ليدن ١٨٩٢)

المجلد الثامن :— المسعودى: كتاب التنبيهوالأشراف ، ومعه شروحوفهارس للمجلدين السابع والثامن (ليدن ١٨٩٤)

* * *

ومن أهم المراجع الجغرافية الغنية بالبيانات التاريخية .

١ — ياقوت الحموى : معجم البلدان (ط . وستنفلد . ليدن ١٨٦٦ — ١٨٧٣ وطبعة القاهرة ١٣٢٣ هـ)

٢ — ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البـــلاد المصرية (القاهرة ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م)

٣ — الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (مختصر طبع روما ١٥٩٢ م)

٤ — الادريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، عن نزهة المشتاق (ليدن ١٨٦٦ م)

* * *

ولعل المرجع الأساسى للبيانات المختلفة عن الأقوام الرحل فى مناطق الاستبس وبلاد ما وراء النهر وجنوبى الروسيا هو الكتاب الفارسى المؤلف سنة (٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م) الذى يعرف باسم « حدود العالم » وقد نشر النص الفارسى على يد المستشرق الروسى W. Barthold فى لينينجراد سنة ١٩٣٠م وقد نشر له الأستاذ فلاديمير مينورسكى ترجمة انجليزية فى اكسفورد ١٩٣٧.

Houdoud al - alam. The Regions of the world. Translated by V. Minorsky (Oxford, 1937, Gibb Memorial Series)

* * *

ومن المراجع الجغرافية الحديثة والمستمدة من الكتب الجغرافية التى ألفها المسلمون فى العصور الوسطى كتاب

G. Le Strange : The lands of the Eastern Caliphate (2nd ed. Cambridge 1930)

وهو يتناول وصف العراق والجزيرة وإيران وأقاليم آسيا الوسطى منذ الفتح الاسلامى حتى أيام تيمور . وقد نقله إلى العربية وأضاف إليه تعليقات جغرافية وتاريخية وأثرية ووضع فهارسه الأستاذان بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ونشر فى مطبوعات المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٥٤ م[١]

* * *

---

(١) قارن الدكتور محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الإسلامى (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة . المجلد الثانى عشر ، الجزء الأول — مايو ١٩٥٠) ص ١٧٠ — ١٧٢ .

كتب الرحلات

حاز المسلمون في العصور الوسطى قصب السبق في ميدان الرحلات والاستكشافات والدراسات الجغرافية . وكان ازدهار الحضارة الإسلامية واتساع الفتوحات وسيادة المسلمين في البر والبحر ، وروابط الدين واللغة والثقافة التي كانت تجمع المسلمين في أطراف امبراطوريتهم . والرحلة في طلب العلم أو لتأدية فريضة الحج ، واتساع نطاق التجارة ، وانتشار قوافل التجار المسلمين في القسم الأعظم من العالم المعروف في ذلك العهد ، نقول كان هذا كله باعثا عظيما على القيام بالرحلات الطويلة .

وكتب المؤلفون المسلمون كثيراً عن رحلاتهم فيما بين القرنين الثالث الهجري (التاسع الميلادي) والتاسع الهجري (الخامس عشر بعد الميلاد) ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادراً . أما معظمهم فقد أدمجوا حديث تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان .

وقد ذكرنا في كلامنا عن الجغرافية عند المسلمين أن أقدم ما وصل إلينا من قصص رحلات المسلمين إنما يصف الصين والهند وبلاد البلغار وجنوبي الروسيا . ثم بدأ الجغرافيون في القرنين الثالث والرابع الهجري يؤلفون في تقويم البلدان ويصفون أجزاء أمبراطوريتهم وما يجاورها من الأقاليم . وامتاز الجغرافيون في القرن الرابع الهجري بأن معظمهم كانوا رحالة جمعوا كثيراً مما كتبوه بواسطة المشاهدة والأسفار .

وفي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) قام ناصر خسرو الفارسي برحلات طويلة في الشرق الأدنى وخلف هـــذا الرحالة وصفاً

دقيقاً لرحلته يحمل على القول بأنه كان يدون مشاهداته أولا فأول وأنه كان شديد العناية بالاتصال بالشعوب الإسلامية التي يزروها ويتفهم مظاهر الحضارة التي يشاهدها . وحسبنا أن نشير إلى وصفه لمدينة القاهرة وكلامه عن مصر فى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، وعنايته بدراسة الأعيـاد والحفلات والصناعات والفنون والأسواق وإلى وصفه الحرم الشريف بالقدس.

ثم زادت الرحلات فى ديار الإسلام منذ القرن السادس الهجرى وكان أهمها ما قام به من أهل المغرب إلى الشرق الإسلامى وعلى رأسهم ابن جبير الأندلسى الذى سافر من ميناء سبتة Ceuta سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م على سفينة من سفن مدينة جنوه إلى الإسكندرية مارة بجزائر البليار وسردانية وصقلية . وفى مصر اتجه إلى قوص فى الصعيد وسافر منها إلى عيذاب بطريق الصحراء. ثم عبر البحر الأحمر على ظهر مركب من المراكب التى تنقل الحجـاج بين عيذاب وجدة . ويمم ابن جبير شطر العراق بعد أداء فريضة الحج ، واتجه بعد ذلك إلى الشـام حيث استقل سفينة جنوية إلى صقلية ، ومنها فى سفينة جنوية أخرى إلى ثغر قرطاجنة بالأندلس . وهكذا عاد إلى بلاده بعد أن غاب عنها نحو سنتين وثلاثة أشهر . وقام ابن جبير برحلة ثانية إلى الشرق الإسلامى سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، وبرحلة ثالثة سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م . وقد دون ابن جبير أخبار رحلته الأولى فى شبه مذكرات يومية غنية بالبيانات الممتعة عن البلاد التى مر بها وأحوالها وسماها « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » وقد ظهرت عدة طبعات لها أحسنها الطبعة الأوربية الجديدة التى راجعها المستشرق الهولندى دى جويه والتى ظهرت فى لندن ١٩٠٧ م (Gibb Memorial Series) والطبعة التى حققها الدكتور حسين نصار وظهرت فى القاهرة ١٩٥٥ م بعنوان « رحلة ابن جبير »

ومن كتب الرحلات الغنية بالدراسات الاجتماعية كتاب « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » وهو وصف رحلة قام بها إلى مصر طبيب عراقى اسمه عبد اللطيف البغدادى وكتب فيها عن وادى النيل فى نهاية القرن السادس الهجرى (أواخر القرن الثانى عشر الميلادى) ، ويمتاز وصف رحلته بالدقة والتعرض لمختلف الشئون العمرانية والاجتماعية ، فضلا عن الاتجاه العلمى المنتظر من طبيب مثل البغدادى والذى يتجلى فى وصف نبات مصر وحيوانها وآثارها القديمة مثل الأهرام وأبى الهول والمسلات والمعابد فى مصر العليا وفنار الإسكندرية وعمود السوارى . وقد سجل البغدادى رأيا فى الآثار يدل على أن قيمة الآثار لم تكن غريبة على المسلمين فى العصور الوسطى ، فقد كتب :

« وما زالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار وتمنع من العيث فيها والعبث بها ، وإن كانوا أعداء لأربابها . وكانوا يفعلون ذلك لمصالح : منها لتبقى تاريخا يتنبه به على الأحقاب . ، ومنها أنها تدل على شىء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم وغير ذلك . وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه » .

وطبيعى أن يفيد الباحثون فى التاريخ الإسلامى من رحلة ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . ولا عجب فهو من أعظم الرحالة المسلمين ، ومن أكثرهم طوافا فى الآفاق وأوفرهم نشاطا واستيعابا للأخبار ، وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية فى البلاد التى تجول فيها . والمعروف أن ابن بطوطة غادر وطنه طنجة فى مراكش سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م لأداء فريضة الحج ، ومر ببلاد الجزائر وتونس وطرابلس ومصر والشام ، ثم

غادر الحجاز إلى العراق بعد موسم الحج، وطاف ببعض بلاد إيران والجزيرة وعاد إلى الحجاز ومنه إلى اليمن، ثم سافر إلى الشام وآسيا الصغرى وشبه جزيرة القرم والقوقاز وإقليم الڤولجا والقسطنطينية. ثم خوارزم وبخارى وسمرقند وهراة ونيسابور وغزنة وكابل. ودخل بعد ذلك بلاد الهند واتصل بسلطانها محمد بن تغلق. ثم تولى رياسة وفد أرسله هذا السلطان إلى ملك الصين وعاد ابن بطوطة من الصين معرجا على سومطرة، ولكنه لم يعد إلى الهند بل اتجه إلى العراق ثم الشام ومصر وتونس، ووصل أخيراً إلى وطنه. ثم قام برحلة ثانية زار فيها الأندلس، وبرحلة ثالثة إلى مملكة المسلمين فى السودان الغربى. وعاد بعد ذلك إلى بلاط السلطان أبى عنان المرينى فى فاس سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م. وأعجب هذا السلطان بما كان ابن بطوطة يقصه من أحاديث أسفاره، فأمر كاتبه محمد بن جزى الكلبى أن يدون ما يمليه عليه ابن بطوطة. وقد تولى ابن جزى كاتب السلطان كتابة الرحلة، وتلخيصها، وترتيبها، وإضافة بعض الأشعار اليها وتحقيق بعض أجزائها مستعينا بكتب الرحلات آنذاك ولا سيما رحلة ابن جبير. وقد سمى ابن جزى رحلة ابن بطوطة «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وفرغ منها سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م؛ ولم ينس ابن جزى فى خاتمة هذه الرحلة أن يثنى على ابن بطوطة، كما افتخر بأن هذا الرحالة اختار الاستقرار فى ديار مولاه السلطان دون غيرها بعد رحلة خمسة وعشرين عاما.

والواقع أن ابن بطوطة خلف لنا صورة صادقة للعصر الذى كان يعيش فيه. أما بعض الاضطراب فى رحلة ابن بطوطة فلعله يرجع إلى أنه لم يدون رحلته بنفسه وأن ابن جزى عدل فى بعض أخبارها بالحذف أو الإضافة بعد أن راجع طائفة من كتب الأسفار الأخرى.

وقد طبعت رحلة ابن بطوطة فى باريس مع ترجمة فرنسية فى منتصف القرن الماضى على يد المستشرقين ديفريمرى Defrémery وسانجنتى Sanguinetti كما طبعت فى القاهرة طبعتين عربيتين .

ونشر الأستاذ جب Gibb ملخصا لها بالانجليزية فى سلسلة Broadway Travellers سنة ١٩٢٩ وقد صـــدره الأستاذ جب بحديث عن الرحالة وعصره[١] .

* * *

القصص الشعبية

من المصادر التى يجب أن يأخذها المؤرخ الإسلامى بنظر الاعتبار القصص الشعبية . ولـكن استنباط الحقائق التاريخية منها يجب أن يكون بحذر كبير وذلك لأنها اعتمدت فى البداية على الرواية الشفهية فحسب ولم تسجل إلا فى عصور متأخرة ،فضلا عن أن هدف هذه القصص كان المفاخرة وتسلية السامعين وكسب إعجابهم بمواقف الابطال وسائر المواقف المثيرة فى القصص ؛ فلا عجب أن عمد الرواة إلى خيالهم فى خلق مثل هذه المواقف وإلى نسج كثير من الأحداث غير التاريخية حول نفر من مشاهير العرب على النحو الذى نعرفه فى الروايات والأفلام التاريخية فى العصر الحاضر .

وقد قامت هـذه القصص فى البداية على أسس من الغزوات والفتوح الإسلامية فـكانت سليمة فى جوهرها إلى حد كبير ، ثم قامت إلى جنب قصص

(١) بخصوص الرحلات والرحالة المسلمون فى العصور الوسطى أنظر : الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، وما ذكره من مراجع .

المغازى قصص شعبية أخرى ، بعضها عن أبطال العرب فى الجاهلية مثل قصة عنترة ، وبعضها الآخر عن الجهاد ضد بيزنطة ، أو عن بنى هلال وتزوحهم إلى شمال إفريقية، وبعضها عن أبطال التاريخ الإسلامى مثل قصة الظاهر بيبرس السلطان المملوكى (١)

* * *

كتب الأدب

لاريب فى أن الكتب الأدبية القديمة معين لاينضب للحقائق التاريخية المختلفة عن أحوال المجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى ، ولاسيما من نواحى الذوق والعادات ، والمقاييس الخلقية والمثل العليا ، ومستوى المعيشة ، والأعياد وأساليب التسلية، وأحوال المدن وغير ذلك من النواحى الاجتماعية . فضلا عن أننا نظفر فيها ببعض الحقائق عن التاريخ السياسى . والواقع أن كثيرا جداً مما نعرفه عن الدولة الأموية مستمد من كتب الأدب .

والملاحظ فى كثير من كتب الأدب الإقبال على سرد النوادر المنسوبة إلى شخصيات معروفة فى التاريخ الإسلامى . ولكن مثل هذه النسبة أمر لايمكن الاطمئنان إليه . وحسبنا أن بعض تلك النوادر كانت من الأقاصيص التى تتكرر فى كتب الأدب والتى تنسب إلى أشخاص مختلفين وفى مناسبات مختلفة .

---

(١) أنظر Sauvaget · Introduction à l'histoire de l'Orient Musulman pp. 26—28.

وفيما يلي بيان بعض الكتب الأدبية التي يفيد منها الباحث في التاريخ الإسلامي :

الابشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف (ط . القاهرة ١٣٥٢ هـ).

الاصفهاني (أبو الفرج) : كتاب الأغاني (بولاق ١٢٨٥ هـ/١٨٦٨ م في ٢٠ مجلدا والمجلد ٢١ طبع ليدن ١٨٨٨م على يد برنوف R.E. Brunnow كما طبعت الفهارس في ليدن ١٨٩٥ — ١٩٠٠ على يد جويدي Guidi) .

ابن الأنباري : نزهة الألبا في طبقات الأدبا (مصر ١٢٩٤ هـ)

ابن حجة الحموي : ثمرات الأوراق

ابن عبد ربه : العقد الفريد

ابن قتيبة : عيون الأخبار (القاهرة ١٩٢٥ — ١٩٣٠ م)

ابن قتيبة : كتاب المعارف (ط . مصر ١٣٥٣ هـ)

ابن الكلبي : كتاب الأصنام (ط . دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م)

البغدادي (عبد القادر بن عمر) : خزانة الأدب

البيروني (أبو الريحان) . الجماهر في معرفة الجواهر (حيدر أباد الدكن ١٣٥٥ هـ) .

التنوخي : الفرج بعد الشدة (مصر ١٣٥٧ هـ) .

التنوخي : المستجاد من فعلات الأجواد (دمشق ١٩٤٦ م)

الثعالبي (عبد الملك) : لطائف المعارف (ليدن ١٨٦٧ م)

الجاحظ : البيان والتبيين (٤ أجزاء القاهرة ١٩٢٨)

الجاحظ : البخلاء

الجاحظ : الحيوان

الجاحظ : التبصر بالتجارة (الطبعة الثانية القاهرة ١٩٣٥ م نشره وصححه وعلق عليه السيد حسن حسنى عبد الوهاب التونسى)

الجاحظ : التاج فى أخلاق الملوك . حققه أحمد زكى باشا (القاهرة ١٩١٤ م)

الخوارزمى : مفاتيح العلوم (ليدن ١٨٩٥ م)

الدميرى : حياة الحيوان الكبرى

الراغب الأصفهانى : محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (مصر ١٣٢٦ هـ)

شيخ الربوة (محمد بن أبى طالب الدمشقى) : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر [سنت بطرسبورج ١٨٦٦ م]

الصابى (أبو اسحق) : رسائل [بعبدا ، لبنان ١٨٩٨ م]

الصولى : أدب الكتاب [القاهرة ١٣٤١هـ]

الغزولى : مطالع البدور فى منازل السرور [القاهرة ١٢٩٩ هـ]

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا [١٤ جزءا] [القاهرة ط . دار الكتب المصرية ١٩١٣ — ١٩١٩ م]

المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب [بولاق ١٢٧٩ هـ]

الميدانى : مجمع الأمثال [القاهرة ١٣٥٢ هـ]

النواجى : حلبة الكميت [مصر ١٢٧٦ هـ]

النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب [١٣ جزءا ط . دار الكتب المصرية والباقى مخطوط بالدار]

الوطواط (جمال الدين) : غرر الخصائص الواضحة (القاهرة ١٢٨٤هـ)

وكيع [محمد بن خلف] : أخبار القضاة [القاهرة ١٩٥٠]

كتب الفقه

الفقه كما نعلم هو استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث، والقياس والإجماع ، وتعنى كلمة « الفقه » لغة الفهم أو المعرفة .

وترجع أقدم الكتب التى وصلت إلينا فى هذا العلم إلى القرن الثانى الهجرى مثل كتاب « الخراج » لأبى يوسف ، و « الجامع الكبير » و « الجامع الصغير » و « كتاب السير الكبير » للشيبانى و « الموطأ » لمالك و « الأم » للشافعى .

وطبيعى أن يجد المؤرخ فى كتب الفقه بيانات كثيرة عن أحوال الشعوب الإسلامية ونظمها فى العصور الوسطى، ولاسيما أن الفقهاء يتجهون فى بحوثهم إلى كافة طبقات الشعب وإلى الجوانب المختلفة من حياة المسلمين ، فلا عجب إذا كانت مؤلفاتهم غنية بالإشارات إلى مستوى المعيشة والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والمالية وإلى الأخلاق والعادات وإلى البدع المنتشرة بين طبقات الشعب . والواقع أن ما يكتبه الفقهاء عن هذه البدع وما نقرأه فى مؤلفاتهم من الفتاوى فى القضايا والحالات المعينة التى يطلب إليهم الفتيا فيها من قبل أولى الأمر والأمراء يعتبر مصدرا ثمينا للمعلومات عن الأحوال التى كان المسلمون يعيشون فيها والمشكلات التى كانت تطرأ فى حياتهم والعادات التى كانت تنتشر بينهم .

ولكن على المؤرخ أن يكون حذراً فى ما يستنبطه من كتب الفقه ، فان ما يكتبه الفقهاء قد يكون نظريا وبعيداً عن الواقع . ومن الأمثلة المشهورة لهذا الخلط ما ذهب إليه بعض الفقهاء عن المساواة بين الذميين بمصر فى دفع

بالجزية ، وما ذهب إليه فقهاء آخرون من أن ولاة الأمور كانوا يعتبرون في فرض الجزية أن الناس ثلاثة مستويات فقط ، فيؤخذ من الموسر ثمانية وأربعون درهما ، ومن الوسط أربعة وعشرون ، ومن دون الوسط اثنا عشر درهما . ولكن الوثائق البردية التي ترجع إلى عصر الولاة ، الذي يمتد من فتح العرب لمصر إلى مجيء أحمد بن طولون إليها ، تبين أن الجزية كانت تختلف باختلاف كل شخص وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية ، فشخص يدفع ديناراً وآخر ديناراً ونصف وثالث ثلثي دينار ورابع ديناراً وثلث وهكذا . ويشهد هذا بأن الجزية كانت تقدر على أساس ثروة كل شخص .(١)

ومما يجب أن لا يغيب عن بال الباحث فيما يتعلق بالبيانات التاريخية في كتب الفقه أن دراساتها لبعض النظم ليست شاملة جامعة ، فبعض الضرائب التي وضعتها الحكومات الإسلامية لا ذكر لها في كتب الفقه ، كما أن من بينها دراسات قد تضلل الباحث لأنها تقوم على فرض حالات غير سائدة في المجتمع بغية مناقشتها والنظر في أحكامها . ولنذكر في هذا الميدان أن معظم الأمور والعادات والبدع التي تؤكد كتب الفقه على تحريمها أو كراهيتها لا بد أن كانت سائدة في المجتمع إلى حد شعر معه الفقهاء بضرورة التأكيد على محاربتها وتخليص المجتمع منها .

كتب الحسبة

من المؤلفات الغنية بالبيانات المختلفة عن الحياة الاجتماعية في ديار الإسلام

(١) أنظر : الدكتورة سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام (القاهرة ١٩٤٧) ص ٣٧ — ٤١ .

كتب الحسبة [١] والمعروف أن المحتسب كان يسهر على مراقبة المجتمع وحماية الناس من غش التجار والصناع، كما كان يشرف على نظام الأسواق والطرقات والعمال والباعة ويعمل بوجه عام على حسن السلوك ومراعاة أحكام الشرع. [٢]

وكتب الحسبة تفصل القول فى واجبات المحتسب. ومن أهم هذه الكتب.

١ — محمد بن محمد بن أحمد القرشى (ابن الأخوة) : كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة (نشره Reuben Levy، كمبردج ١٩٣٨ Gibb (Memorial Series) .

٢ — عبد الرحمن بن نصر الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة (نشره السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٤٦ م) .

٣ — أحمد بن تيمية : الحسبة فى الإسلام (القاهرة ١٣١٨ هـ) .

٤ — أبو عبد الله السقطى : آداب الحسبة (باريس ١٩٣١ م) .

---

(١) أنظر الماوردى. الأحكام السلطانية (القاهرة ١٣٢٨ هـ) الباب العشرون ص ٢٠٨ وما بعدها ، والمقريزى (الخطط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ ،
Grunebaum, G. E. Von: Medieval Islam (Chicago, Illinois, 1947) pp. 165–167.

(٢) أنظر : الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى (ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة — الطبعة الأولى — القاهرة ١٩٤٠ م) ج ٢ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ ؛ الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الإسلامى ص ١٧٣ — ١٧٤ وما ذكر فيها من مراجع ، الدكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين (القاهرة ١٩٥٠) ص ٢٢٩ .

(ب)

كذلك ينبغي للباحث الحديث فى التاريخ الإسلامى أن يفطن إلى الصلة بين كتابة التاريخ الإسلامى وبين علم الآثار . والمعروف أن الآثار هو العلم الذى يدرس الماضى على ضوء جميع المخلفات التى تصل الينا منه . ويستخدم عالم الآثار فى الوصول إلى أهدافه العلمية كل ما يتصل بعلم الآثار من أنواع الدراسات المختلفة مثل علم ما قبل التاريخ وعلم النميات أو المسكوكات ، فضلا عن دراسة الكتابات التاريخية الأثرية ، وعلم الأجناس ، وتاريخ الفنون من عمارة ونحت وتصوير وفنون تطبيقية وزخرفية ، ثم علم الأوراق البردية .

وعلم الآثار يساعد إلى حد كبير فى سد الفراغ الذى نلمسه فى المصادر الأدبية التاريخية ، فضلا عن أنه يصحح فى بعض الأحيان أخطاء تاريخية مشهورة . فقد كان من المعروف أن التربية والحياة فى اسبرطة ببلاد اليونان كانت تتسم دائما بالقسوة والشدة وأن هذه الشدة ترجع إلى تقاليد قديمة فى تاريخ اسبرطة . ولكن الحفائر التى تمت فى هذا الإقليم بين سنتى ١٩٠٥ و١٩١٢ م كشفت عن كثير من مظاهر البذخ والترف والغنى فى حياة اسبرطة فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . وهكذا توصلنا إلى أن الشدة فى الحياة الاسبرطية التى بدأت فى القرن السادس قبل الميلاد لم تكن إلا رد فعل للقرنين السابقين اللذين ساد فيهما الترف ولذا لجأت اسبرطة إلى الشدة لدرء الخطر الذى تعرض له شعب اسبرطة بسبب ذلك الترف وبسبب قلة عدده بالنسبة للشعوب التى كانت تخضع له .(١)

---

(١) أنظر : الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الإسلامى ص ١٥٤ — ١٥٦ .

كذلك تكثر النصوص والروايات المختلفة من التحدث عن ظلم والى مصر قرة بن شريك (٩٠ — ٩٦ هـ) فى خلافة الوليد بن عبد الملك ولكن أوراق بردى كوم اشقاو التى عثر عليها فى سنة ١٩٠١ تشهد بأن هذه الروايات غير صحيحة فى مجملها(١).

والواقع أن الباحثين فى تاريخ العصور القديمة يدركون تماما الصلة الوثيقة بين علم الآثار والتاريخ ، فمؤرخ أى عصر من العصور القديمة لا بد أن يكون عالما من علماء الآثار فيه ، أو على أقل تقدير يعتمد كل الاعتماد على النتائج العلمية التى يصل إليها رجال الآثار فى حضارة المناطق التى يشتغل بتاريخها لأن مخلفات تلك العصور هى المرجع الأساسى فى تاريخها .

أما مؤرخو التاريخ الإسلامى فإن البعض منهم لا يزال يعتقد أن فى الاستطاعة كتابة تاريخ الشعوب الإسلامية بغير استعانة بالآثار؛ ولكن هذا الزعم يؤدى إلى نتائج غير مرضية فى دراسة التاريخ الإسلامى . فالمؤرخ الإسلامى لا بد أن يكون له الملم بالآثار الإسلامية ، أو يحسن — على الأقل — استخدام النتائج العلمية التى وصل إليها علماء الآثار الإسلامية . وحسبنا أن نذكر أن أعلام المؤرخين للتاريخ الإسلامى من بين المستشرقين منذ بداية القرن الحاضر من علماء الآثار الإسلامية مثل مرجليوث ، وتوماس أرنولد ، ولين بول ، ولوسترنج من الإنجليز ، وبيكر ، وكاله من الألمان ، وبلوشيه ، وسوفاچيه ، وڤييت ، وجورج ماسيه ، وليڤى پروڤنسال من الفرنسيين(٢).

أما الدراسات المختلفة التى تؤلف علم الآثار الإسلامية والتى يجب أن

---

(١) أنظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٢) راجع الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الإسلامى ص ١٥٥ — ١٥٧ .

يستخدمها المؤرخ إذا أراد أن تكون بحوثه فى تاريخ العرب والمسلمين أقرب إلى الكمال فهى .

١ — دراسة الوثائق والأوراق البردية .

٢ — دراسة الكتابات التاريخية الأثرية (على العمائر والتحف وشواهد القبور) .

٣ — دراسة السكة أو النميات .

٤ — دراسة تاريخ العمارة وتاريخ الفنون الزخرفية والفنون التطبيقية الإسلامية .

* * *

الوثائق والأوراق البردية

قد تصلنا بيانات فى مؤلفات تاريخية أو أدبية أو اجتماعية لها قيمة كبيرة فى دراسة الشعوب الإسلامية ولكنها لا ترقى من حيث الثقة بها إلى قيمة الوثائق نفسها . ومثل تلك الوثائق معروفة فى التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى ولكنها نادرة وتكاد تكون مقصورة على الوثائق البردية .

والواقع أن الأمم الإسلامية فقيرة فى المخطوطات والوثائق التى يمكن الرجوع إليها فى دراسة حياة الشعب وأموره الادارية والقضائية والاجتماعية والفنية فى العصور الوسطى . وهذا أمر يبدو عجيبا لأول وهلة ، ولا سيما إذا تذكرنا كثرة الوثائق والمخطوطات فى العصور الوسطى الأوربية ، إذ أنه كان من المنتظر أن يصل الينا من العصور الإسلامية أكثر لأن المسلمين كانوا يتفوقون

فى ميدان الحضارة والثقافة بوجه عام ، ولأن الكتابة كانت أكثر انتشاراً بينهم منها بين الأوربيين .

والظاهر أن فقر الأمم الإسلامية فى الوثائق والمحفوظات من العصور الوسطى يرجع إلى أسباب من أهمها أن القرآن والسنة كانا أساس الحكم فى ديار الإسلام وأن مشيئة الخليفة أو السلطان أو الأمير لم تكن تنفذ إلا فى حكمه ، ولم تكن تكسب حقاً يحرص مكتسبه على الاحتفاظ بالوثائق التى تثبت هذا الحق ، لأن مثل هذه الوثائق كانت عديمة القيمة إذا لم يؤيدها الشرع . وفضلا عن هذا فإن المسلمين كانوا متساوين أمام الشرع . ولم يكن فى المجتمع الاسلامى هيئات لها شخصية معنوية كالكنيسة ورجالها فى المجتمع الأوربى ، كما لم يكن فيها أمراء اقطاعيون بالمعنى المعروف فى العصور الوسطى الأوربية ، ولا نقابات قوية ، ولا مدن حرة شبه مستقلة فى نظامها الإدارى والمالى على النحو المعروف فى أوربا فى العصور الوسطى . وقد كانت كل هذه الهيئات تحتفظ بالوثائق التى تثبت ما تكتسبه من حقوق كما كانت تحتفظ بكثير من الأوراق الخاصة بشئونها الاقتصادية والمالية والاجتماعية(١) . وحتى فى الشئون القضائية كان اعتماد القضاة فى الإسلام على سماع الشهود العدول ولم تكن هناك وثائق كثيرة مكتوبة فى هذا الميدان اللهم إلا فى أمور الوقف .

وهكذا نرى أن معظم الوثائق التى وصلت إلينا من العصور الوسطى الإسلامية لابد أن يكون معظمها وثائق حكومية . ومع هذا فانها قليلة حتى فى هذا الميدان وذلك بسبب كثرة الأسرات الحاكمة ، وان معظمها لم يكن ينحدر بعضه من بعض ، أو له تقاليد متصلة ، بل كانت بينها خصومات أساسية

---

(١) أنظر : الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الإسلامى ص ١٥٧ — ١٥٨ .

ربما صرفتها عن العناية بمحفوظات الأسرة التى سبقتها إن لم تكن قد دفعتها إلى تدمير مثل هذه المحفوظات . وفضلا عن هذا فإن ضياع معظم الوثائق الحكومية راجع بطبيعة الحال إلى عدم العناية بحفظها وعدم إدراك أهميتها وأنها تعرضت للحرائق وما إليها من أسباب التدمير .

ومع أن الوثائق التى عثر عليها تبدو فى مجموعها كثيرة المدد فالواقع أننا لا نستطيع أن نظفر منها بمثل ما يظفر به المؤرخون فى تاريخ العصور الوسطى الأوربية من الوثائق التى خلفتها تلك العصور ، وذلك لأن الوثائق الإسلامية قليلة التنوع ، فمعظمها وثائق تتعلق بالادارة وليس من بينها وثائق كثيرة خاصة بالنظم الاجتماعية والأحوال الاقتصادية والنظم المالية ، كما أن هناك بعض الفترات فى التاريخ الإسلامى وبعض الأقاليم فى ديار الإسلام لم تصل إلينا عنها إلا وثائق قليلة جداً .

وترجع معظم هذه الوثائق إلى مصر فى فجر الإسلام . ولهذه الوثائق شأن كبير فى دراسة الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمالية ، إذ أن من بينها أوراقا بردية (١) تتعلق نصوصها بالجزية والخراج واسناد المناصب وأنظمة

---

(١) المعروف قبل استعمال الورق الحالى صنع المصريون القدماء الورق من نبات البردى . فكان لباب البردى يشق إلى شرائح يوضع بعضها عموديا إلى جوار بعض وتلصق عليه شرائح أخرى فى وضع أفقى وتضغط الشرائح كلها وتصقل ثم يكتب عليها وكانت اللفة البردية تسمى درج البردى ، وكان درج البردى يتألف من عشرين ورقة ملصق بعضها ببعض وكانت الورقة الأولى تزخرف بكتابات كبيرة ورسوم ونقوش وتشير الكتابة إلى تاريخ الصناعة ومكانها واسم الصانع وغير ذلك من البيانات الرسمية وتسمى الورقة الأولى من الدرج باليونانية Protocol (من Protos بمعنى الأول و Kolla بمعنى صمغ وتطلق هذه الكلمة فى الاصلاح الدبلوماسى الحديث على النسخة الأصلية من أى وثيقة أو رسالة أو اتفاق أو معاهدة) أما فى العربية فقد اطلق لفظ طراز على الكتابة الرسمية التى كانت تكتب على الورقة الأولى فى درج البردى .

الإدارة وطرق التجارة وبناء العمائر والمساجد وإنشاء الأساطيل وأثمان البضائع والبيوت والأرض فضلا عن عقود الزواج والبيع والشراء وما إلى ذلك من المكاتبات الخاصة التي تكشف عن بعض العادات والنظم الإجتماعية .

وقد اتجهت العناية إلى دراسة الأوراق البردية الإسلامية منذ عثر بعض الفلاحين في مصر في أوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٢٤ م على جرة صغيرة فيها ورقتان من البردى مكتوبتان باللغة العربية وأرسلهما دروفتي Drovetti قنصل فرنسا في القاهرة حينذاك إلى المستشرق سلفستر دى ساسى Silvestre De Sacy فكتب مقالا عنهما في « مجلة العلماء » Journal Des Savants في باريس سنة ١٨٢٥ . وفي النصف الثاني من القرن الماضي إزداد العثور — ولا سيما في إقليم الفيوم — على الأوراق البردية المكتوبة باليونانية والقبطية والعربية .

وبيع معظم هذه الأوراق إلى الأوربيين فتفرق في المكتبات والمتاحف والمجموعات الأثرية ولا سيما في ڤينا وبرلين ولندن وباريس؛ ولكن دار الكتب المصرية لا تزال تحتفظ بمجموعة ثمينة من أوراق البردى العربية التي كشفت في الفيوم أو في غيرها من البلاد المصرية كأخميم وسقارة والأشمونين وميت رهينة واهناسيا وإدفو .

ومن الوثائق البردية النفيسة ما عثر عليه في قرية كوم اشقاو[1] التي كانت تعرف باليونانية باسم Aphrodito ، ومعظمه محفوظ الآن في المتحف البريطاني وفي متحف المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو كما تحتفظ دار الكتب المصرية بمجموعة منها .

---

(١) تقع كوم اشقاو بين أبوتيج وطهطا في مديرية أسيوط وكانت في العصر الإسلامي كورة من كور الصعيد تسمى أشقوه .

وتكشف هذه الوثائق عن بيانات طيبة عن المجتمع المصرى والإدارة فى عصر قرة بن شريك الذى كان واليا على مصر من قبل الوليد بن عبدالملك بين سنتى ٩٠و٩٦ هـ (٧٠٩ — ٧١٥ م)

ويعتبر المستشرق النمسوى آدولف جرومان A. Grohmann الحجة فى دراسة الأوراق البردية وقد نشر أبحاثا وكتبا كثيرة عنها . كذلك نشر كثير من الأوراق البردية على يد المستشرقين أمثال مارجليوث Margoliouth، وبيكر Becker ، بل Bell ، هوفمير Hofmeier ، دى ساس De Sacy ماسبيرو Maspero ، أبوت N. Abbot بالإضافة إلى مجموعة الأرشيدوق رينر [1] .

وها هى نماذج من بعض المعلومات التى نستنبطها من نصوص الأوراق البردية العربية التى وصلت إلينا :

دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام : ص ٢٣ ، ٣٠،٣٥،٣٦ ، ٣٨،٣٩،٤١،٤٨،٤٩،٥٠،٥٦،٥٧،٥٨،٥٩،٦٠،٦٣،٦٤،٦٨،٧٥، ٨١، ٩١،٩٤،٢٠١،٢٢٥،٢٢٧،٢٦٥،٢٧٨،٢٩١،٢٩٢ .

دكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين : ص ١٢٦ ، ١٤٧، ١٧٧،١٨١،١٩٧،١٩٨،١٩٩،٢٤٣،٢٤٨،٢٥٥، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤،٢٦٥،٢٧١،٢٧٢،٢٧٣،٢٧٤، ٢٧٥،٢٧٦،٢٧٧،٣٤٢، ٣٤٤ .

ومن الوثائق التى تفيد الباحث فى التاريخ الإسلامى وثائق الوقف .

---

(١) بخصوص المراجع المختلفة الخاصة بالأوراق البردية ، أنظر : الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الإسلامى ص ١٥٨ — ١٦١ .

والوقف[١] ، أو الأحباس ، أو الحبوس ، نظام يقصد به أن يصبح العقار غيرقابل للتبديد وأن يخصص دخله لذرية مؤسس الوقف وفقا للأنصبة التى يحددها فى وثيقة الوقف ، أو يخصص لمؤسسة دينية أو خيرية .

والراجح أن هذا النظام قديم فى ديار الإسلام وربما كانت بدايته فى العصر الأموى . والمعروف أن إنشاء ديوان الأحباس أو الأوقاف بمصر يرجع إلى عصر الولاة الأمويين منذ سنة ١١٨ هـ ، وكان القضاة هم الذين يشرفون عليه . وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس هو توبة بن نمر الحضرمى (١١٥ — ١٢٠ هـ) وكانت الأحباس قبل ذلك فى أيدى أهلها وفى أيدى أوصيائهم فقال توبة : « ما أرى مرجع هـــذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين ، فأرى أن أضع يدى عليها حفظاً من التواء[٢] والتوارث ، فلم يمت توبة حتى صارت الأحباس ديوانا عظيما[٣] .

وقد ذاع نظام الوقف وأقبل الناس إليه اما بدافع من التقوى للقيام بالمشروعات الخيرية كبناء المساجد والمدارس والبيمارستانات والسقايات[٤] ، وضمان الإنفاق على صيانتها بعد وفاة المؤسس ، واما للحيلولة دون تجزئة الثروة بسبب الإرث ، إذ يصبح العقار سلما يمكن استغلاله بإشراف ناظر الوقف ويوزع الدخل على ذرية الواقف.

---

(١) أنظر مادة « وقف » فى دائرة المعارف الإسلامية والمراجع التى وردت فى المقال .

(٢) التواء أو التوى معناها الخسارة والضياع والهلاك .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٤٦ (نشر Guest بيروت — ١٩٠٨ Gibb Memorial Series .

(٤) السقاية ما يبنى لجمع الماء ، أو قناطر المياه .

ويذكر المؤرخون أن ابن طولون حبس على مسجده الجامع وقناطره (سقايته) ومارستانه دخل بعض الأبنية[1] .

ولسنا نعرض هنا لمحاسن نظام الوقف[2] ولا لمساوئه التى أدت إلى إلغائه فى بعض الدول الإسلامية فى العصر الحديث ، ولكن الذى يعنينا أن العقود التى كان يحررها الواقفون والتى وصل إلينا عدد كبير منها تضم فى وصف العقار وتحديده وبيان أهداف الواقف وغير ذلك أموراً يمكن أن نستنبط منها معلومات ثمينة عن المجتمع وعن المصطلحات المعمارية والقانونية والإدارية .

ولكن وثائق الوقف التى لاتزال محفوظة إنما ترجع إلى العصور المتأخرة من التاريخ الإسلامى ، فضلا عن أن الوصول إلى دراستها ليس سهلا للمؤرخين بسبب قيمتها المادية وحفظها بين وثائق المحاكم والحكومات ، ومما يزيد فى صعوبة الاهتداء إليها والإفادة منها أنها فى معظم الدول الإسلامية لم تنظم تنظيما علميا أو تفهرس بحيث تسهل دراستها .

وقد وصلت إلينا « وقفية » من العصر الأخشيدى ، ذكرها المقريزى فى كلامه عن « سبع سقايات » شيدها الوزير جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات لسكان الفسطاط حين أصبحوا يحتاجون فى موسم الجفاف إلى جلب الماء من منطقة جزيرة الروضة بسبب جفاف الخلجان وانحسار مياه النيل إلى تلك

---

(١) أنظر : الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٦٧ .

(٢) أنظر فى الوقف أيضا :

Gaudefroy Demombynes : Les Institutions musulmanes p. 168 et suiv.

وانظر ترجمة هذا الكتاب بعنوان « النظم الاسلامية » بقلم صالح الشماع وفيصل السامر (بغداد ١٩٥٢) ص ١٩٥ وما بعدها .

المنطقة(١) . وقد حفر هذا الوزير بئراً بخط الحمراء فى الفسطاط لينقل منها الماء إلى سبع السقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين وكتب عليها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لله الأمر من قبل ومن بعد وله الشكر وله الحمد ومنه المن على عبده جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات وما وفقه له من البناء لهذه البئر وجريانها إلى السبع سقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين ، وحبسه وسبله وقفا مؤبداً لا يحل تغييره ولا العدول بشىء من مائه ولا ينقل ولا يبطل ولا يساق إلا إلى حيث مجراه إلى السقايات المسبلة (فمن بدله بعد ماسمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم)(٢) وذلك فى سنة خمس وخمسين وثلثمائة وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم » .

وقد حفظ لنا المقريزى نص هذه الكتابة حين تحدث عن بئر الوطاويط(٣) . ومن الطريف أن هذه الكتابة وجدت على لوحة كبيرة من الحجر فى حى الصليبة عند مدخل الشارع الصغير الذى يصل شارع الصليبة بجامع ابن طولون والذى كان يعرف باسم عطفة بير الوطاويط . ولكن هذه اللوحة كسرت وضاعت بعض أجزائها فلم يبق منها إلا نحو ثلاثةسطور قرأها فان برشم وفييت(٤) .

وهذه الكتابة وثيقة عظيمة الشأن ، لأنها تشهد بأن المقريزى جدير

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٤٤ :
(٢) سورة البقرة آية ١٨١ .
(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٣٥ .
(٤) Wiet : Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte II. pp. 91—94.

بالثقة فيما يكتبه وبأنه يحرص على الدقة فيما يسجله عن الآثار ، ولأنها أقدم « وقفية » وصلت إلينا فى تاريخ مصر الإسلامية .

والملاحظ أن هذه البئر لم تكن تعرف عند إنشائها باسم بئر الوطاويط ، وقد ذكر المقريزى أن السقايات خربت بمرور الزمن وبنى فوق البئر وتولد فيها كثير من الوطاويط فعرفت ببئر الوطاويط (١) .

كذلك ينسب إلى أبى بكر محمد بن على الماذرائى دار تسمى دار تبر . وقد وقفها هذا الوزير على ولده ، وبعد انقراض عقبه ،على الفقراء والمساكين بمدينة الرسول (٢) .

وقد نشر الأستاذ ماير « وقفية » من عصر السلطان المملوكى قايتباى (٣)

* * *

وإن كنا فى معرض الكلام عن الوثائق والأوراق البردية فينبغى أن نذكر أن الجمهوريات والممالك والمدن التجارية الكبيرة فى العصور الوسطى والحديثة كالبندقية وجنوة ونابولى وبيزا وبرشلونة كانت لها علاقات تجارية مهمة مع ديار الإسلام وقد خلفت هذه العلاقات عددا من الوثائق الورقية السياسية والتجارية تعتز به دور المحفوظات فى تلك البلاد .

ولكن معظم هذه الوثائق الورقية خاص بعلاقة الدول الأوربية بالدولة

---

(١) أنظر : سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٢) ابن دقاق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٩ (بولاق ١٣٠٩ هـ نشر المستشرق فولرز Vollers) ، وسيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٩١

(٣) أنظر Mayer, L. A. : The Buildings of Qaitbay (London 1928)

العثمانية فى الحقلين السياسى والاقتصادى ، ولذلك نراه محفوظا فى وزارات الخارجية والحربية والبحرية وفى الفاتيكان فضلا عن دور المحفوظات العامة .

* * *

والمعروف أن معظم الوثائق الورقية المحفوظة فى ديار الإسلام لا ترجع إلى ما قبل العصر التركى فهى لذلك لا تفيدنا كثيرا فى التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى وإنما هى وثائق عظيمة الشأن فى دراسة الشرق الإسلامى فى العصر العثمانى أى العصر الحديث .

* * *

ونذكر أخيراً أن بعض المؤرخين والكتاب المسلمين فى العصور الوسطى نقلوا صور وثائق حكومية فى مؤلفاتهم . ومع أننا قد نفيد من هذه الصور فى استنباط كثير من البيانات [1] إلا أن مثل هذه الفائدة محدودة لسببين رئيسيين : الأول أننا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذه الصور ، فقد تكون منقولة عن كتب أقدم وليست عن الوثائق الأصلية نفسها ، وقد تكون موضوعة ومنتحلة لتأييد وجهة نظر خاصة ، فضلا عن أن نقلها على يد الكتاب من جيل إلى جيل قد يكون سببا لإدخال كثير من التحريف والتصحيف والحذف والإضافة وما إليها . أما السبب الثانى فهو أن هذه الصور المنقولة عن الوثائق الأصلية قليلة التنوع فلا تكاد تتجاوز بعض المراسلات والخطب والمحالفات . وعلى رأس

---

(١) أنظر : حميد الله الحيدربادى : مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة (القاهرة سنة ١٩٤١) ، والدكتور جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية (القاهرة) .

المؤلفين المسلمين الذين نجد فى مؤلفاتهم عدداً كبيراً من مثل هذه الوثائق المنقولة القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الانشا .

* * *

النقوش الكتابية التاريخية الأثرية

لاشك أن الكتابات التاريخية الأثرية لها شأن كبير فى دراسة التاريخ الإسلامى فهى كتابات محايدة ومعاصرة للأحداث التى تسجلها لم تتغير من ناقل إلى ناقل أو من راو إلى راو . وهذه الكتابات كتبت على جدران المساجد وفى التحف الأثرية وعلى شواهد القبور وفى الأضرحة والتكايا والمنازل وسائر العمائر وعلى المنسوجات . وقد وصل إلينا الألوف من هذه الكتابات المليئة بالأدعية والآيات القرآنية والحقائق المؤرخة . ولا شك أن المسلمين أقبلوا على الكتابة إلى حد كبير كالفراعنة القدماء وذلك لأنهم اتخذوا الكتابة عنصراً من العناصر الزخرفية (١) .

حقا ان الكتابات الأثرية الإسلامية لا تضاهى فى قيمتها التاريخية الكتابات الأثرية الفرعونية والسبئية واليونانية واللاتينية ، وذلك لأن الكتابات فى التاريخ القديم لها شأن عظيم بالنسبة إلى قلة المصادر المدونة ؛ أما الكتابات الأثرية الإسلامية فإنها ليست إلا مصدرا تقف إلى جنبه مئات الكتب التاريخية والأدبية وغيرها مما ذكرنا التى تعتبر من المصادر الأساسية فى دراسة التاريخ الإسلامى . كذلك نلاحظ أن الكتابات التاريخية الإسلامية ينقصها التنوع

---

(١) أنظر الدكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام (فصل الزخارف الكتابية فى الفن الاسلامى) ص ٢٣٤ — ٢٤٨ .

ويكثر فيها التكرار فالغالب عليها كتابة آيات القرآن الكريم والترحم على الموتى أو كتابة الأدعية المختلفة لصاحب التحفة مثلا ، أو لمشيدى المساجد والمدارس والسبل والعمائر ، أو الإشادة بذكر الخليفة أو السلطان أو الأمير مع بيان ألقابه . هذا بالإضافة الى أن ما وصل الينا من الكتابات التاريخية الإسلامية فى بعض أقاليم الإمبراطورية الإسلامية نادر بحيث لا يستطيع هذا المصدر أن يفيدنا كثيرا فى دراسة تلك الأقاليم . والواقع أننا نلاحظ أن بعض الأقاليم الاسلامية غنى بالكتابات التاريخية الأثرية مثل مصر والشام وبلاد الجزيرة ، وبعضها فقير مثل بلاد المغرب ولا سيما تونس .

ومع ذلك فإن كل الذى ذكرناه لا ينقص القيمة التاريخية للكتابات الأثرية الإسلامية بوصفها مصدراً من المصادر الأصيلة فى دراسة التاريخ الإسلامى . ذلك لأنها تمتاز بأنها معاصرة للحقائق والأحداث التى تسجلها وبأنها أكثر حياداً من كتابات المؤرخين المسلمين الذين قد يتعصبون للأسرة الحاكمة التى يكتبون فى ظلها ، أو يتعصبون لمذهب دينى سائد فى دولتهم . وتمتاز الكتابات التاريخية بأن تواريخها صحيحة ، كما يقل التحريف والتصحيف فى الأسماء المختلفة فضلا عن أنها تزيد المعروف من أسماء الموظفين ، وتلقى ضوءاً فى بعض الأحيان على الإدارة وأحوال المجتمع ونظمه المالية والاقتصادية . وبالإضافة إلى هذا كله فإنها تحدد تاريخ العمائر والتحف فتسدى أجل خدمة لتاريخ الفن ولعلم الآثار بوجه عام . ونلاحظ أيضا أن الكتابات التاريخية تفيد كثيراً فى مراقبة أقوال المؤرخين وإثبات صحتها أو الكشف عن أخطائها[1] . فمثلا نرى المؤرخين المصريين فى العصور الوسطى يختلفون

---

(١) أنظر الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الاسلامى ص ١٦١ — ١٦٢ .

فى تاريخ إنشاء جامع احمد بن طولون فيذكر الكندى[١] أن ابن طولون ابتدأ فى تشييده سنة ٢٦٤ هـ وأتمه فى سنة ٢٦٦ هـ ، وذكر ابن دقماق[٢] وأبوا المحاسن بن تغرى بردى[٣] أن الشروع فى تشييده كان سنة ٢٥٩ هـ ، أما المقريزى[٤] فقد ذكر أن بنيان الجامع ابتدأ سنة ٢٦٣ هـ وأن الفراغ من بنائه كان فى سنة ٢٦٥ هـ . وقد صحح أقوال هؤلاء المؤرخين التاريخ الوارد فى الكتابة التاريخية التى وجدت على لوح من الرخام فى الجامع ومنقوشة بالخط الكوفى وهى تثبت أن الفراغ من بناء الجامع كان فى سنة ٢٦٥ هـ كما ذكر المقريزى .[٥]

وكيفما كانت الحال فإن المفهوم أو المستنبط من النقوش الكتابية الأثرية هو الذى ترجح كفته دائماً فى حالة الاختلاف بين مايذكره أى كتاب تاريخى وما نفهمه من أى نقش كتابى أثرى . ولكن الطريقة المثلى فى الإفادة من النقوش الكتابية الأثرية هى الموازنة بين نصوصها وبين الحقائق المستمدة من المؤلفات التاريخية ثم التعليق عليها وشرحها وإظهار مايمكن استنباطه منها مؤيداً للحقائق المستمدة من المؤلفات التاريخية أو مخالفا لها . وعلى رأس من قاموا بمثل هذه الدراسات الفنية المستشرق السويسرى ماكس فان برشم Max van Berchem الذى يعتبر بحق رائد المشتغلين بعلم الكتابات الأثرية الإسلامية :

---

(١) كتاب الولاة والقضاة ص ٢١٩ .

(٢) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ١٢٣ (ط . بولاق ١٣٠٩ هـ) .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٩ (ط . دار الكتب المصرية) .

(٤) الخطط ج ٢ ص ٢٦١ .

(٥) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٣٧ .

ولقد ولد ڤان برشم سنة ١٨٦٣ م ودرس على كبار المستشرقين وعلماء الآثار فى سويسرا وألمانيا وفرنسا ، ثم ظهر نبوغه فى قراءة الكتابات الأثرية العربية وتفسيرها وربطها بالحقائق المستمدةمن المؤرخين المسلمين ومن سائر الكتابات الأثرية العربية حتى أصبح أكبر حجة فى هـذا الميدان . واقتفى أثره علماء هذه الناحية من الدراسات الإسلامية فى العصر الحاضر. وقد زار ڤان برشم بلاد الشرق الإسلامى ورجع منها بمحصول وافر من المواد والوثائق العلمية اللازمة للعمل العظيم الذى كان يعده ، وهو وصف العمائر الإسلامية فى الشرق الأدنى وجمع ماعليها من كتابات أثرية لتظهر فى مؤلف كبير وغنى بالشروح والتعليقات الأثرية ، وهذا المجلد سماه جامع الكتابات الأثرية العربية Corpus InscriptionumArabicarum . وقد استعان ڤان برشم فى هذا العمل الجليل بأعوان من خيرة زملائه وتلاميذه جمعوا معه الكتابات الأثرية فى مصر وسورية وفلسطين . وقد أدرك مجمع الآداب الرفيعة فى باريس Académie des Belles Lettres مالهذا المجلد الكبير من عظيم الشأن فتمثل نشره برعايته وجعله لاحقا لكتاب «جامع الكتابات السامية Corpus Inscriptionum Semiticarum الذى نشر قبل ذلك على يد العالم الفرنسى أرنست رينان Ernest Rénan (١٨٣٢ — ١٨٩٢م)

ومن خير الأمثلة لبحوث ڤان برشم فى ميدان النقوش الكتابية الأثرية كتابه عن النقوش العربية فى سوريا .

Inscriptions Arabes de Syrie (Mém. prés. Inst.Eg. t. III, 1897, pp. 417—520)

وقد كتب ڤان برشم مع ادمون فاتيو وصفا لرحلته بين العالم الأثرية فى سورية عرض فيه لوصفها والحديث عما يتصل بها من الأحداث التاريخية(١).

---

(١) Max Van Berchem et Edmond Fatio : Voyage en Syrie. II vols. (Mém. publ. par les Membres de l'Instit. Français d'Archéol. Orientale du Caire 1914 – 1915)

ويعتبر هذا الكتاب من أنفس المراجع فى تاريخ الشام وآثارها ، والعلاقات بين الشرق والغرب فى عصر الحروب الصليبية .

وقد أبعدت الحرب العالمية الأولى كثيرين من تلاميذ وأعوان ڤان برشم عنه فتوقفت الدراسات فى هذا الميدان إلى حد كبير . ولما عاد السلام وعاد إلى العلم طلابه وأساتذته لم ينعم ڤان برشم بعودة السلام طويلا إذ مات هذا الرائد العظيم فى سنة ١٩٢١ م .

لكن علم النقوش الكتابية الإسلامية كان قد نما واستقرت قواعده عند وفاة ڤان برشم، وقد خلفه فى حمل عبئه نخبة من تلاميذه وعلى رأسهم جاستون ڤيت الذى أتم الجزء الخاص بمصر من « جامع الكتابات العربية » فكتب الجزء الثانى من هذا المجلد الكبير .(١)

وكانت الخطة فى « جامع الكتابات الأثرية العربية » التى بدأها ڤان برشم أن يكون لكل بلد من ديار الإسلام قسم فيه ، وأن ترتب الكتابات الأثرية فى كل بلد ترتيبا تاريخيا وفقا للعمائر التى توجد فيها .

وقد عمل تلاميذ ڤان برشم وأعوانه على تحقيق رغبته فى جمع النصوص العربية المكتوبة على العمائر والتحف فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى فتضافروا

---

(١) Wiet (Gaston) : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte II Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale t. 52. 1930)

على تنفيذ هذا المشروع ونهض بأعبائه ڤيت (.Weit(G وكومب (Combe(Et وسوفاجيه (.Sauvaget (J معتمدين على المشتغلين بالآثار الإسلامية والتاريخ الإسلامى . وهكذا ظهر « السجل التأريخى للكتابات العربية » .

Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe

وقد أهدى هذا السجل الجامع الشامل إلى ذكرى ڤان برشم. وقد اختيرت عبارة عربية أخذت من كتابة أثرية فى المدرسة المرجانية ببغداد لتكتب تحت الاهداء وهى « إذا مات إنسان انقطع عمله إلا عن علم ينتفع به »[١] .

ولا شك أن اختيار هذه العبارة كان موفقا إلى أبعد الحدود . وقد ظهر الجزء الأول من هذا السجل سنة ١٩٣١ وتم الى اليوم ظهور أربعة عشر جزءاً .

وقد جمع هذا السجل كل الكتابات المؤرخة أو التى يمكن معرفة تاريخها باسم أمير أو حاكم ، أو بطرازها الفنى ، أو بغير هذا من الأدلة والقرائن . والمعروف أن التحف التى يمكن معرفة تاريخها يؤتى بها فى الترتيب التاريخى فى آخر سنة من حكم الأمير الذى تنسب الى حكمه . وتنتهى بعض أجزاء هذا السجل بعدد من الكتابات فات المشرفين على إخراج السجل وضعها فى ترتيبها التاريخى فجعلوها ذيلا يكشف عما فات ادراجه فى الأجزاء السابقة .

ولا ريب فى أن هذه الكتابات الأثرية تكشف عن كثير فى سيرة بناة العمائر وأصحاب التحف وفى تطور الأنظمة والعادات والأحداث السياسية

(١) أنظر الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الاسلامى ص ١٦٢ — ١٦٤ .

والملاقات التجارية وغير ذلك ، فضلا عن أنها تكشف عن أسماء بعض المهندسين والصناع الفنيين .(١)

علم النميات أو النقود أو السكة

النميات جمع النمى ومعناها الفلوس أو الدراهم . وهذه الكلمة مشتقة من اللاتينية واليونانية Nummus ، Nomos بمعنى الفضة المضروبة أو النقد والأنواط . ومنها مادة Numismatics فى اللغات الأوربية .

وكان ضرب النقود فى ديار الإسلام من اختصاص رئيس الجماعة السياسية من خليفة أو سلطان أو أمير أو الذين يمثلونه من الولاة والحكام (٢) ولذا كانت دراسة السكة الإسلامية من الدراسات التى يفيد منها التاريخ الإسلامى أكبر فائدة ولا سيما التاريخ السياسى. فالكتابات المنقوشة على السكة تشتمل على ألقاب الأمراء والحكام وتاريخ الضرب وبعض عبارات خاصة بمذهبهم الدينى فهى بذلك سجل للألقاب والأسماء ، كما أنها تبين تبعية الولاة للخلافة أو استقلالهم عنها ومدى هذا الاستقلال . ولا شك أن قيمة هذه النميات كبيرة فى هذا الشأن لأنها وثائق صحيحة وقديمة ورسمية وليس من السهل الطعن فيها (٣) .

---

(١) أنظر الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الاسلامى ص ١٦٥ — ١٦٦ وما ذكره من المراجع التى عرضت للكتابة الأثرية .

(٢) أنظر ما جاء عن السكة فى الفصل السادس والثلاثين من مقدمة ابن خلدون « فى شارات الملك والسلطان الخاصة به » .

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الاسلامى ص ١٦٧ ، سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ١٩٢ — ١٩٥ .

وعلاوة على هذا كله فان السكة الإسلامية تخلد أسماء مدن كانت تضم دوراً لضرب النقود مما يشهد بما كان لهذه المدن من شأن إدارى كبير . ثم ان العثور على كميــات من السكة الإسلامية يشير فى كثير من الأحيان إلى الآفاق البعيدة التى امتدت إليها التجارة الإسلامية كما يشير فى الوقت نفسه الى أنواع السكة التى كان الإقبال عليها عظيما .

وقد أخرج العالم العراقى الأب انستاس مارى الكرملى سنة ١٩٣٩ كتابا سماه « النقود العربية وعلم النميات » جمع فيه أهم ما كتبه فى هذا الميدان المؤلفون العرب فى العصور الوسطى [١] ولا سيما البلاذرى والمقريزى فضلا عما كتبه بعض المؤلفين المحدثين . وأضاف الأب انستاس إلى ذلك شروحا وتعليقات لأسماء الرجال والكنى والنعوت والألقاب والصفات المعظمة التى ترد فى الكتابات على النقود ، والمواد التى تتخذ منها النقود ، والموازين والمكاييل والمقاييس والأثمان وغير ذلك ، مما يكشف الكثير عما يفيده الباحث من الحقائق السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى دراسته للنقود الإسلامية [٢] .

---

(١) أنظر المقريزى : شذور العقود فى ذكر النقود القديمة والاسلامية ط . القسطنطينية ١٢٩٨ هـ ، والمقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور الشيال ، ابن خلدون : المقدمة ، القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا . ط . دار الكتب المصرية .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الاسلامى ص ١٦٧ — ١٦٨ .

وقد كتب كثير من المستشرقين كتبا وبحوثا لها قيمتها فى دراسة النقود والنميات الإسلامية مثل ستانلى لين بول St.lane – Poole ولاڤوا lavoix، وسوڤير Sauvaire وغيرهم (١).

تاريخ الفنون

يعنى علم الآثار بفحص المخلفات القديمة كلها ، أما تاريخ الفن فيعنى على الخصوص بالأشياء التى لها قيمة فنية .

وهناك تعريفات كثيرة للفن ، وخلافات بين الفلاسفة والعلماء حول ماهيته. وقد بسطه بعضهم بأنه مايخرجه الإنسان من عالم الخيال إلى عالم الحس ليحدث فى النفس اعجابا أو طربا أو دهشة أو تأثراً بالعواطف الإنسانية مع الشعور بالجمال .

ويبدو أن البواعث على الإنتاج الفنى مختلفة ومتنوعة منذ أقدم العصور ، فقد أراد الإنسان منذ تلك العصور القديمة أن يزخرف الأشياء التى يستعملها فى حياته ليمتع نظره برؤيتها ولأجل أن تروق فى نظر غيره ، كما كان يرسم المرئيات فى بعض الأحيان ليخلد ذكرها أو ليحظى بإعجاب بنى جنسه أو ليسجل بعض الأحداث كالصيد والحروب . وكان فى رسومه هـذه يتجاوز الحدود الضرورية للمسكن والمأكل والمشرب وينشد ما يزين ويمتع نفسه ويعبر عن مشاعره .

---

(١) فيما يتعلق بالمراجع فى النقود الإسلامية أنظر المصدر السابق ص ١٦٨ — ١٦٩ ، وسيده كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ١٩١ — ١٩٦ .

وكان الإنسان البدائي يخشى قوى الطبيعة الثائرة كالعواصف والرعد والبرق والزلازل ويعتقد أنها آلهة خفية تسبب له الرعب والمرض والمصائب؛ فكان السحرة يصنعون التماثيل والتمائم للوقاية أو الشفاء من الأمراض ولاتقاء الكوارث وإبعاد الشياطين . وهكذا كانت المعتقدات الدينية ذات صلة بقيام الفن منذ البداية .

وعندما تحضر الإنسان كان للعقائد الدينية أثر كبير في ازدهار الفن. ودليل ذلك تشييد المعابد والمدافن وتزيينها بالرسوم فضلا عن نحت التماثيل .

والمعروف أن الفنون الجميلة تنقسم إلى قسمين أساسيين. الفنون الشكلية Plastic arts ، وفنون الحركة أو الفنون الزمنية dynamic arts أما الفنون الشكلية فهي التي ينقل فيها الفنان أشكال المرئيات ويجسمها فيتمتع الانسان برؤيتها كالمباني والتماثيل والصور والزخارف وتشمل هذه الفنون العمارة architecture والنحت sculpture والتصوير painting والفنون الزخرفية decorative arts وقد تسمى الفنون الزخرفية ، الفنون التطبيقية applied arts و الفنون الفرعية minor arts والفنون الصناعية industrial arts

واصطلاح الفنون الزخرفية أوفق هذه التسميات وأعمها لأنه يشمل كل فروع الفنون الشكلية فتدخل تحته زخرفة المباني بالنحت أو بالألوان أو بمواد مختلفة وكذلك أثاث المنزل وأدوات الأكل والشرب والأقمشة والمصنوعات التي يدخل فيها شيء من الزخارف .

أما الفنون الزمنية أو فنون الحركة فهي الفنون التي لا يشعر بها الانسان إلا بالأذن أي بحاسة السمع وتحتاج إلى مدة من الزمن حتى يتم تأثيرها كالقطعة الموسيقية والقصيدة .

وأما الرقص فإنه يدرك بالنظر ولكنه يحتاج لزمن لإتمام الخطوات على الايقاعات الموسيقية . وكذلك يتمتع الإنسان بالفن المسرحي بالسمع والبصر وكل فصل من فصول الرواية المسرحية يحتاج إلى مدة من الزمن .

أى أن الفنون الزمنية أو فنون الحركة تشمل الموسيقى والرقص والشعر والبلاغة والفصاحة والتمثيل . ولا شك أن دراسة الكتب الأدبية والقصص الشعبية تمدنا بالكثير عن هذه الفنون الزمنية .

أما الفنون الشكلية فذات شأن عظيم فى تاريخ المدنية الإسلامية . فان دراسة العمائر والتحف تلقى الضوء على كثير من الأمور ذات الصلة الوثيقة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية، وتكشف عن مستوى المعيشة وازدهار الصناعة أو تدهورها، كما تبين تطور العلاقات بين الأقاليم المختلفة فى ديار الإسلام، وبينها وبين سائر أنحاء العالم. وإذا أردنا أن ندرس الأزياء والملابس والأسلحة والحلى فلا يكفى أن ندرس ما وصل إلينا من المنسوجات الأثرية والأسلحة والحلى القديمة لان ماوصل إلينا منها قليل . وإنما يجب أن ندرس الرسوم الآدمية فى الصور الموجودة فى المخطوطات وفى الرسوم الموجودة على التحف، والرسوم المستقلة فاننا نفيد من درس ما فى هذه الصور من رسوم الملابس والأسلحة والحلى[١]. كما أن دراسة الرنوك الإسلامية — أى الشارات التى كان يتخذها الأمراء رمزاً لهم — على العمائر والتحف تكشف عن كثير من جوانب نظم الفروسية والاقطاع فى العصور الوسطى. لذلك يجد المشتغلون بدراسة الحضارة الإسلامية أن العمائر والتحف والتصاوير من المصادر الأصلية

(١) الدكتور زكى محمد حسن : دراسات فى مناهج البحث فى التاريخ الاسلامى ص ١٦٩ .

التى يمكنهم أن يستنبطوا منها كثيراً من الحقائق فى هـذا الميدان ، ولـكن عليهم أن يتأكدوا من اصالة تلك التحف والتصاوير وبعدها عن التزييف وذلك بالاعتماد فى دراستها على آراء الاختصاصيين فى الآثار الإسلامية .

ومن المراجع العامة فى الآثار الإسلامية :

(١) الدكتور زكى محمدحسن: أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية (من مطبوعات كلية الآداب والعلوم فى بغداد ١٩٥٦ م) .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : فنون الاسلام (القاهرة ١٩٤٨ م) .

(٣) الدكتور زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية فى العصر الاسلامى (من مطبوعات دار الآثار العربية بالقاهرة ، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة ١٩٤٦ م) .

(٤) الدكتور زكى محمد حسن : الصين وفنون الإسلام (من مطبوعات المجمع المصرى للثقافة العلمية . القاهرة ١٩٤١ م).

(٥) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين (من مطبوعات دار الآثار العربية بالقاهرة ١٩٣٧ م) .

(٦) الدكتور زكى محمد حسن : التصوير فى الإسلام عند الفرس (من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٣٦ م) .

(٧) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر (من مطبوعات دار الآثار العربية بالقاهرة ١٩٣٥ م) .

ونلاحظ أن كلا من المراجع السابقة يضم ثبتا كبيرا بالمراجع الرئيسية فى الآثار وتاريخ الفنون الإسلامية .

ويجدر أن ننشر هنا أيضا إلى ماتشرته مديرية الآثار القديمة بالعراق بعنوان « حفريات سامراء » فى جزءين ١٩٤٠ م .

* * *

كلمـــة ختامية

ولا يفوتنا فى هذا المجال أن ننبه الباحث عند النظر فى المصادر المخطوطة أن يتأكد من أصالتها وأن يحذر مما قد يكون قد دخل فيها على يد النساخ من اضافة أو حذف أو تعديل وذلك بالموازنة بين المخطوطات المختلفة التى نعرفها من الكتاب الواحد .

ومن ضروب ما يحدث فى المخطوطات أن بعض أصحابها او قرائها يضيفون فى هوامشها أو فى نهاية فصولها ، أو بين سطورها نصوصا أو شروحا أو تعليقات . وقد يحدث أن يختلط الأمر على بعض النساخ فى العصور التالية فيدمجون هذه الاضافة إلى المتن وهكذا تصبح منسوبة إلى المؤلف على الرغم من تأخرها عن عصره ومن أن ما فيها قد يكون مخالفا لرأيه .

ومن الأمثلة الطريفة فى هذا الصدد ما رواه الدكتور أسد رستم عما وقع لزميله الأستاذ جبرائيل جبور عند كتابة رسالته عن ابن عبد ربه . كتب الدكتور أسد رستم[1] : «وقد وجد الأستاذ جبور عندما درس كتاب العقد لابن عبد ربه ، أن ناشرى الطبعات التى بين أيدينا لهذا الكتاب ، اعتمدوا على نسخة خطية دست فيها جملة كثيرة من الأخبار ، فأثبتوا الأصل والزيادة

(١) مصطلح التاريخ ص ٢٧ — ٢٨ .

فى طبعاتهم دون ان ينتبهوا إلى الأمر أو يشيروا إليه، والغريب أن بعض هذه الأخبار المدسوسة كانت ظاهرة، لايحتاج أمر اكتشافها الى كثير من العناء أو التدقيق ، فإنك إذا قرأت العقد ترى أنه قد ترجم فيه فى كتاب اليتيمة الثانية لأربعة خلفاء من بنى العباس ، هم الراضى والمتقى والمستكفى والمطيع وكلهم توفى بعد وفاة ابن عبد ربه أى بعد سنة ٣٢٨ هـ ، وترى فى ترجمة الأخير أنه قد خلع نفسه سنة ٣٦٣ هـ أى بعد موت ابن عبد ربه بـ ٣٥ سنة . أو ليس من المؤسف أن يقدم الناشر المحلى على مثل ما تقدم بعد أن يكون العلامة تيودور نولدكه قد نبه فى كتابه أمراء غسان إلى هذا الدرس» .

والواقع أن الأستاذ جبور قد استطاع فى رسالته سالفة الذكر أن يكشف عما دس على ابن عبد ربه فى كتاب العقد الفريد[١] .

* * *

ومن الإنصاف أن نذكر أخيراً أن الاستهانة بالمؤلفات الحديثة ، أمر فيه نكران لجهود الباحثين ، بل ان قراءة المراجع الحديثة واجبة على المؤرخ ليستطيع أن يقف على سير البحوث العلمية التاريخية ، ولا سيما أن بعض هذه الكتب أو المقالات يمتاز بعمق البحث ويشهد بالجهود المضنية التى بذلها أصحابها فى الرجوع إلى المصادر الأصيلة وفى نقد رواياتها واستنباط الحقائق التاريخية منها . وطبيعى أن كثيرا من الكتب الحديثـة سطحى ، أو يقصد به تأييد وجهة نظر خاصة من دون التقيد بأساليب البحث العلمى الصحيح ، أو يهدف إلى التثقيف العام ، ومثل هـذا كله لا يصح أن يكون مرجعا فى البحوث

(١) أنظر الدكتور أسد رستم : مصطلح التاريخ ص ٢٧ — ٣٢ .

العلمية التاريخية . والمعروف أيضا أن الكتب الحديثة التاريخية تتفاوت في منهجها العلمى من حيث سداد المنهج ونقد الروايات وذكر المصادر وعمق البحث وسلامة العرض وإفادة القارىء بالفهارس المفصلة . وليس عسيراً على الباحث أن يميز ما يمكن أن ينتفع به من الكتب الحديثة . ومن المفيد أن نذكر عبارة الإمام الغزالى « إذ الشكوك هى الموصلة إلى الحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال » .

مصادر التاريخ الإسلامى

ومناهج البحث فيـــه

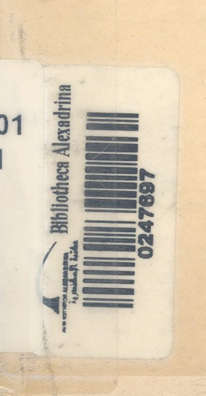
صفحة

موضوعات هذا البحث :

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً)



مطبعة لجنة البيان العربي

١ شارع مصطفى باشا كامل - القاهرة